عمر لطفي النجار

التكاليف في الفكر الصوفي

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ مقدمة:

إن الخلاف بين النبي والولي الصوفي، عميق جداً، إنه الخلاف العقائدي البحت، الذي جوهره التوحيد عند كل منهما، فالنبي يقول بالإله المفارق للعالم، الخالق للوجود من العدم، كما يقول بتوحيد "لا إله إلا الله"، ولا توحيد سواه مقبول عند الله، وبناء على الفرق بين الخالق والمخلوق أو الله والعالم، كانت التكاليف امتحاناً لطاعة أو معصية المخلوق لخالقه، وهو حر فيما يختار، ومحاسب في الآخرة عما اختار بإرادته.

أما الصوفي فله شأن آخر، فمن حيث اعتقاده بتوحيد "لا فاعل إلا الله" الذي معناه الجبر، فلا معنى عنده للتكاليف، إلا تناقض الله مع نفسه، فكيف يكلف الله العباد امتحاناً لهم ويحاسبهم، ولا فاعل فيهم سواه؟ أما إن وصل الصوفي السالك طريق المقامات، إلى مقامات الجمع التي منها الاتحاد مع الله أو حلول الله فيه أو الخُلَّة التي تعني تخلخل الخالق بالمخلوق، ومن حيث انعدام الفرق بين الخالق والمخلوق مع كل هذه المقامات، فلا تكاليف عندها عليه لانعدام الفرق بين العابد والمعبود أو المكلِّف والمكلَّف. وإذا وصل إلى مقام تلقي الأوامر من الله في كل أفعاله، فهو عندها المقيم للصلاة إن أمره الله بإقامتها، وبتركها إن نهاه عنها، وإن سئل، قال: "لقد أمرني قلبي عن ربي" بفعل كذا أو بعدم فعل كذا!

وإذا وصل الصوفي إلى قمة المقامات، إلى مقام وحدة الوجود بتوحيد "لا موجود إلا الله"، عندها يكون انعدام الفرق بين الخالق والمخلوق بشكل مطلق، بعد أن كان محدوداً بمقامات جزئية، عندها لا مكان للتكاليف، ومن المحال أن يكلِّف الله نفسه أو يأمر نفسه وينهاها، وبهذا أيضاً يكون تحرر الجبر أو توحيد "لا فاعل إلا الله" من حيلة خلق الله للاستطاعة أو للأعمال.

وحسب عين الرقيب، اختلفت مواقف الأولياء، فبعضهم يقيم التكاليف تقية، وبعضهم فضل الرياضَّات عليها، وبعضهم استهزأ واستخف بها، وبعضهم أنكرها وصرح بعدم وجوبها، وبعضهم لا يقيمها بحجة الأسرار والأحوال، لتشهد الكرامات له بحسن صنيعه وهكذا!

وإذا ما عاد الصوفي من عند الله، بعقائده الصحيحة وبما زوده الله من الخوارق ليدعو العباد إلى طريقه، وحيث لم يجد أمامه أو بين يديه إلا المقيمون للتكاليف المعتقدون بتوحيد لا إله إلا الله، أقرَّهم على ما هم عليه، إلى حين يكون لهم الكشف والفتح، وبالكشف يصبح الصوفي كمن في الجنة، وبالجنة لا تكاليف ولا حساب ولا ابتلاء.

ـ أسباب التكاليف في التصوف:

التكاليف عند الصوفي ليست من العبادات أو الوسائل التي بها القربى إلى الله، إنها رياضات المبتدئين، وانشغال بما سوى الله من أجل سواه، وحلاوة الطاعات سم وحجاب وشرك، ولهذا كله انشغل في تفسير وجودها بعيداً عن أمر الله أو التكليف أو الابتلاء.

الغزالي يقول أن التكاليف بمثابة الأدوية التي يعطيها الطبيب لمريضه، وبذلك يكون تخلصه من الربط بين العمل والجزاء أو الحساب، أو بين الجنة والتكاليف، لأن الجزاء والجبر لا يلتقيان، يقول: "فهكذا ينبغي أن يفهم أمر التكليف فإن الطاعات أدوية والمعاصي سموم"[١] في القلوب"[٢]، وتكليف الله سبحانه وتعالى عباده يجري مجرى تكليف الطبيب المريض. فإن وفِّق المريض حتى وافق الطبيب شفي"[٣]. هذا صحيح، لكن لو كان معناه مرتبطاً بثمار العبادات لا في أسبابها، فأن يكون نقاء القلوب سبباً لوجودها قد يؤدي إلى عدم وجوبها إلا على المرضى، وبمقارنتها من جهة أخرى بالثمار الأجدى قد تكون محاولة إسقاطها والاستغناء عنها، وهذا غير جائز لأن التكاليف أوامر إلهية غير مشروطة إلا بالابتلاء للإنسان الحر في اختياره، ما بين الطاعة أو المعصية، وهو

---

[١] ـ ص٦٨ المظنون به على غير أهله
[٢] ـ ص٦٥ نفسه
[٣] ـ ص٦٧ نفسه

المحاسب على اختياره، وهنا سر الاختلاف ما بين الله عز وجل وأهل التصوف.

بعضهم يرى أن سبب التكاليف، هو التكفير لذنب آدم عليه السلام في معصيته لأمر الله عز وجل: "قال بعض العارفين: إن سبب مشروعية جميع التكاليف هو الأكلة التي أكلها أبونا آدم عليه الصلاة والسلام من الشجرة، فكانت جميع التكاليف في مقابلتها كفارة لها وتطهيراً لمحلها"[١]. وبهذا حسب زعمه يكون نفي التكاليف عن الابتلاء والحساب وحرية الإرادة التي للإنسان، ولكن الله تعالى قد غفر لأبينا آدم و"ولا تزر وازرة وزر أخرى".

وبمعرض البحث عن الحجب، يرى ابن عجيبة، أن الله سبحانه وتعالى قد فرض التكاليف ليحتجب بها عن بعض عباده الجهلة، والحجب برأيه هي ما يلي: الأول "حب الدينار. الثاني: ارتباط الأسباب مع مسبباتها. الثالث: الوقوف مع ظاهر الشريعة. الرابع: الوقوف مع حلاوة الطاعات ولذيذ المناجاة"[٢].

فالتكاليف إذن لم تكن من العبادات ولا للعبادة إلا من باب الوهم، إنها حجاب لإبعاد العوام عن ربهم، وإذا ما كان لنا انتزاع تلك الحجب

---

[١] - ص٥٩ ج٢ م٤١ اليواقيت والجواهر
[٢] - ص٢٧٩ ج٢ إيقاظ الهمم

فنحن عندها مع الجبر مع توحيد لا فاعل إلا الله الذي فيه الانكار للابتلاء وحرية الإنسان والآخرة بما فيها من ثواب وعقاب أو جنة ونار.

المكر الإلهي هو السبب في وجود التكاليف، فأن يأمر الله عباده بالتكاليف والأعمال ولا فاعل إلا هو سبحانه، فهذا من المكر الخفي "فإنه لولا المكر الخفي- كما يقول ابن عربي – لما صح تكليف ولا طلب جزاء -. إن الله لا يكلف نفسه، وليس العامل إلا هو"[1].

أي إن التكاليف وتوحيد لا فاعل ولا موجود إلا الله لا يلتقيان، وإن صح أنه سبحانه قد أمر وكلف وقال بالحساب على الأعمال، فليس هذا إلا من باب المكر الخفي، الذي لولاه ما تعبد العوام ربهم.

وليس هذا هو السبب الوحيد للتكاليف عند ابن عربي، فهناك لديه ما سماه كسر الله للإنسان الذي خلقه على صورته، ومن أجل كسره أو "تحجيمه" كانت التكاليف بما فيها من حيرة بين التناقضات، يقول: "إنه خلقك على صورته، ثم كسرك بما شرع لك، فصرت مأموراً منهياً- ثم كسرك بالجزاء- فالأصل عدم الكسر وهو الصحة"[2].

أي: بالأصل لا وجود للجزاء ولا لشيء اسمه التكليف، أو الكسر، والتكاليف برأيه معلولة بالمكر والجبر والكسر، وليس هذا وحسب، وإنما

---

[1] - ص١٤٤ ج٤ بـ٥٠٦ الفتوحات المكية

[2] - ص٢٨١ ج٤ بـ٥٥٨ الفتوحات المكية حضرة الوكالة

هي لجعل الإنسان على الحيرة التي وراءها التوحيد الصحيح، يقول: "وما فتن الله من فتن من عباده إلا بحكم ما ظهر عليهم من الدعاوي فيما يتصرفون فيه أن ذلك الفعل لهم حقيقة أو كسباً. فما اختبرهم إلا ليعثروا على مثل هذا العلم فيعصموا من الدعوى فيسعدوا. والله خلقكم وما تعملون، وهي أعظم آية وردت في ثبوت الحيرة في العالم"[1].

فالتكاليف إذن عقوبة المحجوبين الذين أشركوا لزعمهم حرية الاختيار أو القدرة على الفعل، وبالعقوبة حيرهم أي للمسلمين، بين علمهم بالجبر مع تكليفهم باختيار الطاعة أو المعصية، "ولولا أن العبد ادعى الاستطاعة في الأفعال والاستقلال بها، ما أنزل الله تكليفاً قط ولا شريعة"[2]، فعندما "ادعى المكلف ما ليس له كلفه الحق ما كلفه"[3].

ومن أجل اسقاط هذه العقوبة، لا مناص من التوبة من دعوى الإرادة والاختيار، والرجوع إلى الاعتقاد بتوحيد لا فاعل إلا الله، فإذا كانت هذه التوبة أو إذا جاء الأجل المسمى – كما يقول – وفك العمى وأبصر الأعمى، جاء التعريف، وزال التكليف"[4].

والشيخ علي ولده "يقول: التكليف والاختبار من الحق قرين الاختيار ودعوى الاقتدار من الخلق، فمن عجز وسلم لم يُكلَّف ولم

---

[1] - ص١٢٦ ج٤ بـ٤٨٩ نفسه
[2] - ص١٥٨ ج٢ بـ ٨٤ نفسه
[3] - ص٣٨١ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه
[4] - نفسه

يُختبر"[١]، والنابلسي يقول على لسان الله عز وجل: "فكلفناك بسبب ما تكلَّفت أنت له، فوقعتَ في الكلفة أي المشقة والتعب في الدنيا، فإذا لطف الله تعالى بك- فنيت- وانمحقت بالكلية"[٢]. وبالمحق والفناء المؤدي للاعتقاد بتوحيد لا فاعل إلا الله، تكون المغفرة من ذنب دعوى الاختيار والاختبار، ومن ثم العفو أو سقوط التكاليف.

التكاليف عقوبة الذين لم يسلكوا طريق الكشف "ولما علم الحق سبحانه، أن من عباده من لا يقدر أن يشهده فيما برز منه، أشغله بخدمته- ولما علم منه أنه ربما يمل من خدمة واحدة لوَّن له- فلون له طاعته، فإذا مللت من الصلاة انتقلت إلى ذكره، وإذا مللت من ذكره انتقلت إلى قراءة كتابه وهكذا"[٣]، "ولما علم الحق سبحانه أن من عباده ما لا تنهضه المحبة، ولا يسوقه إليه مجرد الرغبة، وإنما تسوقه إليه سلاسل الامتحان بتخويف النيران أو شبكة الطمع"[٤] كلفه، حتى وقع بشبكة الفخ الذي نصبه الله، حتى صار يطمع بالجنة ويخاف من النار، فإن تاب ولجأ إلى الكشف، زال التكليف واتضح الحق.

التكاليف عقوبة المعتقدين بالفرق بين الخالق والمخلوق، أي هي عقوبة ما قبل الكشف المؤدي لتوحيد لا موجود إلا الله، والنابلسي يقول:

---

[١] - ص٢٧ ج٢ الطبقات الكبرى
[٢] - ص١١٩ شروح رسالة الشيخ ارسلان
[٣] - ص١٦٩ ج١ إيقاظ الهمم
[٤] - ص٩١ ج٢ نفسه

"إذا كنتَ معك أي مع نفسك لا معه تعالى- وهو مقام الفرق استعبدك له أي جعلك عبداً له تعالى، وأتعبك بأنواع التكاليف الشاقة"[1]. وإذا زال الفرق بالاتحاد والحلول وتوحيد لا موجود إلا الله، فلا مكلِّف ولا مكلَّف، ولا تكاليف أو تعب ومشقة.

التكاليف عقوبة الجهلة: واعلم كما يقول ابن عربي بأن "العبادات بحكم التسخير، إنما هي للفقهاء العامة – أو العوام – الذين أعماهم الله عن الحقائق، فقيل لهم قدِّموا لتجدوا، وهؤلاء هم الجهال عندنا، وعليهم توجَّه التكليف- وأما الصوفية المحققون فعبادتهم لا بحكم التسخير، لكن من طريق الشكر، بشاهد الفناء عن ملاحظة العمل- عملوا لأن السيد قال لهم اعملوا- فلم يتصور لهم أن يطلبوا أجراً لهم"[2].

أي: إن خطاب التكليف موجه لعقاب الجهلة وبالعقاب سخرهم أو استعبدهم مقابل الأجر، أما أهل التصوف الذين ينفذون الأمر لأنه أمر، فلا مكان لديهم للطمع أو الخوف، ولهذا لم يتوجه عليهم خطاب التكليف، وبرفضهم للعلاقة السببية بين الأعمال أو التكاليف والجزاء والثواب أو الجنة والنار، أصبحوا من أهل الشكر، وبالشكر لا شرك، أو كأن التكاليف مشروطة باللاشكر!

---

[1] - ص٩٣ شروح رسالة الشيخ ارسلان
[2] - ص٩٧ روح القدس في محاسبة النفس

التكاليف حسب توحيد لا فاعل إلا الله الذي أجمع عليه أهل التصوف، عمل لما سوى الله بما سوى الله، ولهذا فهي الشؤم على حد تعبير الجيلاني القائل: "كل ما أشغلك عن الله عز وجل فهو عليك ميشوم وإن كان الصوم والصلاة-. العارف قائم مع الله عز وجل-. يصير من جملة اللذين قال الله فيهم "ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال""[1]. فنواصيهم بيد من لا فاعل سواه، لا فرق في ذلك بين أفعال الطاعة وأفعال المعصية، ومهما كانت أفعالهم فلا حساب ولا تكليف عليهم، لأنه لا تكليف لمعدوم الإرادة، ولا تعب ولا أعمال مشؤومة، أي: العارف هو الذي لا تكاليف عليه، لمعرفته بتوحيد لا فاعل إلا الله.

ومن طلب الراحة أو الخلع لنعليه فليرحل إلى التصوف، "إلى الوادي المقدس"، ومن لا شيخ صوفي له فشيخه الشيطان، "فالشيخ الكامل هو الذي يريحك من التعب – تعب التكاليف – لا الذي يدلك على التعب"[2]. ومنه يكون الأمر بخلع النعلين لا من سواه:

"واخلع النعلين إن جئت إلى ذلك الحي ففيه قدسنا"[3]

[1] - ص٢٤٩ الفتح الرباني
[2] - ص١١ ج٢ إيقاظ الهمم
[3] - ص١١ نفسه

أي: إن التكاليف الإلهية بما فيها من صلاة وصيام وحج، لا نفع منها إلا التعب دون طائل، وليس إلا الشيخ الصوفي لمن أراد الوصول إلى مقام خلع النعلين، أو "الكتاب والسنة" على حد تعبير ابن عربي، وعندها لا تحجير ولا تكاليف ولا نصب ولا عنت ولا شيء غير الراحة.

التكاليف عقوبة المحجوبين والجهال والأغبياء من أولياء التصوف، وقد "قال أبو يزيد رضي الله عنه: طلعا الله على قلوب أوليائه فمنهم من لم يصلح لحمل المعرفة صرفاً، فشغلهم بالعبادة"[1]، و"لأن يقال لي لمَ لمْ تفعل أحب إلي من أن يقال لي: لمَ فعلت؟"[2]. ولذلك أقلع أبو يزيد عن إقامة التكاليف وهو مطمئن البال!!

وإذا تجوهر الصوفي وصار على الطبيعة الملائكية، فلا مكان عندها للأمر بالتكاليف، "فالأوامر والنواهي رسوم العوام، ولو تجوهروا لسقطت عنهم، أما نحن – يقول: فقد ـ تجوهرنا وعرفنا الحكمة"[3]، حتى أصبحنا ولا تكاليف علينا لتزعجنا.

---

[1] ـ ص١٠٩ ج١ إيقاظ الهمم، ص١٧٢ النور من كلمات أبي طيفور
[2] ـ ص١٧٢ النور من كلمات أبي طيفور
[3] ـ ص٣٦٨ تلبيس إبليس

ـ التكاليف والقربى من الله:

التكاليف رياضات، وهي في أدنى الدرجات، وعند ذهاب رابعة العدوية إلى الحج خرجت الكعبة لاستقبالها، واستغرب ابن أدهم كيف لم يجدها عند وصوله إليها بعد عشرين سنة من سفره إليها، حيث كان يصلي ركعتين مع كل خطوة يخطوها. وعللت رابعة تفوقها عليه بقولها: "يا ابراهيم! لقد جئت أنت بالصلاة، أما أنا فقد جئت بالفقر"[١]. فالتكاليف تصلح وسيلة للتقرب إلى الله، فتقرَّب به إليه بما ليس له، بالفقر، "فإن الله – كما يقول ابن عربي – يجل أن يُطلب بمسافات الأقدام وبمشاقات الأعمال وبالأفكار"[٢]. واعلم كما يقول النابلسي أن العبادات والطاعات وإن كانت مقبولة عند الله تعالى لا توصل إليه تعالى لأنها غيره والإيصال منه تعالى وحده لا منها"[٣]، وأبو يزيد يحدثنا عن حكايته قائلاً بصراحة: لقد "كان ابتداء أمري أن أقامني الحق تعالى على أبواب العلماء أي الفقهاء وصحبت المتعلمين دهراً طويلاً. ولم أصل إلى الحق تعالى"[٤]، "فأقامني الحق تعالى مع المصلين في الجماعة والمحاريب دهراً طويلاً. ولم أصل إلى الحق تعالى. فأقامني مع الصائمين دهراً طويلاً. ولم أصل إلى الحق تعالى. فأقامني مع زوار بيته دهراً طويلاً. ولم أصل إلى الحق

---

[١] ـ ص٢٦٣ الصوفية في نظر الإسلام
[٢] ـ ص٤٤٣ ج٤ بـ٥٥٩ الفتوحات المكية
[٣] ـ ص٩٧ شروح رسالة الشيخ أرسلان
[٤] ـ ص١٦١ ـــ ١٦٢ النور من كلمات أبي طيفور

تعالى. فأقامني مع زوار بيته دهراً طويلاً-. ولم أصل إلى الحق تعالى. فأقامني مع المجاهدين أضرب معهم بالسيف-. ولم أصل إلى الحق تعالى- . فناداني الحق: يا أبا يزيد! إنه لا يتقرب إلي متقرب بمثل من يأتيني بما ليس لي-. يا أبا يزيد! ليس لي فاقة ولا فقر، فمن ابتغى لدي الوسيلة بهما قرَّبته"[١]. ثم قال: "فها أنا معه على هذا العهد، فليس من ساعة إلا وتأتيني منه كرامة جديدة"[٢]. ولا كرامات عن التكاليف، لأن التكاليف عاقر ليست بولود، وسهل التستري يقول هو الآخر: "حالي قبل الصلاة وبعد الصلاة واحد"[٣]، ولا رجاء منها لفتح أو كشف أو كرامات وخوارق.

التكاليف لا تنفع للقربى إلى الله، ولا لتحصيل الكرامات، ولا شيء منها إلا الحجاب والغفلة وانشغال بما سوى الله، إنها غفلة "عن التوجه إلى معرفته ومعاني تجلياته-. وإنما رغبتهم – أي القائمين عليها – في طاعته وعبادته فقط"[٤]، "فالعبادات التي هذا شأنها ذنوب لا عبادات"[٥]، "فقد اشتغل هذا بصيامه وهذا بصلاته وهذا بروايته – يقصد المحدثين – وهذا بخوفه من النار، وهذا بحبه الجنة"[٦]، فهذا كله انشغال بالحجب، انشغال بما سواه تعالى و"في الطاعات من الآفات ما لا تحتاجون أن

[١] - ص١٦٢ نفسه
[٢] - ص١٦٣ نفسه
[٣] - ص١٦٥ نفسه
[٤] - ص٢٢٢ الصوفية في شعر ابن الفارض
[٥] - ص٨٨ شروح رسالة الشيخ أرسلان
[٦] - ص٣٠٩ الفتح الرباني

تطلبوا معه المعاصي"[1]، وليس بعد الشرك من ذنب، لقوله تعالى: "إن الله يغفر الذنوب جميعاً إلا أن يشرك به" "فإن شغلك تكليفه لك أمراً ونهياً عن مشاهدته، وأوجب دعواك الوجود معه وقيامك بنفسك هلكت عن بينة"[2]، فكل من وقف مع الرسوم الظاهرة أو التكاليف لا يطمع أن يذوق حلاوة المعاني الباطنة، وكل من اشتغل بحلاوة الرسوم لا يذوق حلاوة شهود الحي القيوم، وكل من اشتغل بحلاوة العبادة الحسية، لا يذوق حلاوة المعاني القدسية"[3]. فللباطن طريق وللظاهر طريق آخر، ومن المحال أن يلتقيان فإما إلى الله وإما إلى سواه، "وقد قال شيخ شيوخنا رضي الله عنه: معصية بالله – أي بأمر الله – خير من ألف طاعة بالنفس"[4]، ولكن "لا بد من صحبة شيخ عارف ينقلك من العمل الظاهر أو التكاليف – إلى عمل الباطن وإلا بقيت مع عوام المسلمين"[5]، واعلم بأن "الذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من عمل الجوارح"[6].

---

[1] - ص١٨٢ النور من كلمات أبي طيفور
[2] - ص١٧٢ شروح رسالة الشيخ أرسلان
[3] - ص٢٠٨ ج٢ الفتح الإلهي
[4] - ص١٤٣ ج١ إيقاظ الهمم
[5] - ص١٨٩ ج٢ الفتح الإلهي
[6] - ص١٨٩ نفسه

ـ التكاليف والمقامات أو المراتب:

وبعد أن قال أبو يزيد البسطامي: لم أر من الصلاة إلا نَصَبَ البدن ولا من الصوم إلا جوع البطن. قال أحد العارفين: "إنما قال ذلك عند بلوغه نهاية الرجال وغاية الأبدال"[1]، وأبو يزيد نفسه يقرر مبدأ المراتب حيث يقول: "غصت في بحور الأعمال – أو التكاليف – أربعين سنة، فصعدت فإذا أنا مربوط بالزنار"[2] أو بما سوى الله أي: بعد أربعين سنة من قيامه بالتكاليف عرف أن لا نفع منها للسالك نحو الفتح أو الله، وعن تطوراته في المراتب أو المقامات، يقول: "حججت أول حجة فرأيت البيت، وحججت الثانية فرأيت صاحب البيت ولم أر البيت. وحججت ثالثاً فلم أر البيت ولا صاحب البيت"[3]، أي: الحجاج ثلاثة أنواع: عوام، خواص، خواص الخواص، وخواص الخواص هم الذين عرفوا أن بيت الله هو القلب لا الكعبة، وبهذا يكون انعدام الفرق أو المسافة بين الكعبة والحاج، ولا حج بعدها ولا سفر.

والغزالي يروي عن أحدهم أنه قال: "من رآني في البداية صار صدِّيقاً، ومن رآني في النهاية صار زنديقاً، إذ النهاية – كما يقول – ترد الأعمال إلى الباطن وتسكن الجوارح إلا عن رواتب الفرائض"[4]. فمن

---

[1] ـ ص١٢١ النور من كلمات أبي طيفور

[2] ـ ص١٥١ نفسه

[3] ـ ص١٠٢ نفسه

[4] ـ ص٥١ ج١ إحياء علوم الدين

نظر إلى الصوفي في بدايته سيراه في إقامته للتكاليف خير قدوة للصديقين أو المؤمنين، ومن نظر إليه بعد أن رد التكاليف إلى القلب دون الجوارح سيراه زنديقاً عطل الأفعال وأنكر التكاليف، حتى أن الاستثناء الذي تبرع به الغزالي لا قيمة له أمام قوله نفسه: "اعلم أن الصوم ثلاث درجات: صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخوص-. وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهضم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية. ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله"[1]. فالصوم عند خصوص الخصوص صوم القلب لا الجوارح، فليس الصوم معناه الامتناع عن الطعام والشراب كما هو عند العوام والمبتدئين في التصوف، وإنما هو صوم القلب عن التفكير في كل ما سوى الله، وبهذا التأويل يكون الفصل بين ارتباط التكاليف والجوارح أو بينها وبين الأجر والأغراض الاجتماعية، والغزالي لا ينكر ذلك، وكل الذي شدَّد عليه أن تكون أمثال هذه التأويلات من الأسرار التي لا يجوز إعلانها للعوام وفي ذلك يقول: "إن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف-. فلا ينبغي أن يشوَّش عليه اعتقاده، بل ينبغي أن يخلَّى وحرفته-. بل لا ينبغي أن يُخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة في

[1] - ص٢٣٤ ج١ إحياء علوم الدين

الصناعات التي هم بصددها، ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار كما نطق به القرآن، ولا يحرك عليهم شبهة"[1].

فالصوم في الظاهر أو القرآن امتناع عن الطعام والشراب، ولكنه في الباطن صوم الفكر عما سوى الله، وليحذر أحدكم من إفشاء هذا السر للعوام، فدعوهم مع حرفتهم في طلب الأجر على صومهم وصلاتهم، دعوهم يعبدون الله طعماً بجنته وخوفاً من ناره، دعوهم على ظاهر القرآن، دون الشبهات التي منها الوعد والوعيد، والتوحيد ووجود الجنة والنار وليرتقوا في المقامات إن كان لهم ليعلموا بعدها بأنفسهم بما كانوا عليه من أباطيل وأوهام!

يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: "تعلم من الخلَّق ثم من الخالق"[2]، فـ "لا بد من التعلم من الخلق أولاً وهو الحكم ثم من الخالق ثانياً وهو العلم اللدني"[3]. ففي البداية يأخذ الصوفي بما قاله النبي ﷺ الذي هو من جملة الخلق، وفي النهاية وعند وصوله إلى الله عز وجل، يأخذ علمه من الله مباشرة بلا واسطة، وهو حينئذ في غنى عن كل ما سوى الله، ولكن التكاليف حسب رأيه، لا علاقة لها بالوصول إلى هذا المقام، وفي هذا يقول: "ما هذا شيء يجيء بصيام النهار وقيام الليل، لكن بطهارة القلوب

[1] - ص٥٨ ج١ إحياء علوم الدين
[2] - ص٢٠٣ الفتح الرباني
[3] - ص٢٠٤ نفسه

وصفاء الأسرار. عن بعضهم: الصيام والقيام خل وبقل على المائدة والطعام غيرهما. صَدَقْ، هما أول الطعام ثم يجيء لون بعد لون من الأطعمة ثم الأكل ثم غسل الأيدي ثم يجيء لقاء الله عز وجل، ثم الخِلع والأقطاع والإمارة والنيابة وتسليم البلاد والقلاع"[1]. فالصوفي إذن لا يقيم التكاليف إلا في بداية السفر وما هي بالتشبيه إلا كالمقبِّلات مقارنة بالطعام الذي هو غيرها. ولكن البون واسع بين البداية والنيابة، أو بين العوام والواصلين، فالعامي أو "المؤمن يأكل مباح الشرع والولي يُؤمر بالأكل ويُنهى عنه من حيث قلبه، والبدل لا يهتم بشيء. فالولي قائم مع الأمر، والبدل مسلوب الاختيار، وكل ذلك مع حفظ الشرع"[2]، "ففي حالة الإيمان تأخذ بمباح الشرع، وفي حال الولاية تأخذ بيد الله"[3]. أي: العوام أصحاب الإيمان أو القرآن، لهم الشرع ومنه الحلال والحرام، أما الولي الواصل إلى الله، فلا آمر له إلا الله، فالله هو الذي يأمره بكذا وينهاه عن كذا، بخطابه المباشر إلى قلبه ولهذا كثيراً ما نسمع الصوفي وهو يقول: حدثني قلبي عن ربي بفعل كذا وكذا، فإن أمره بأداء التكاليف فعلها، وإلا فهو في انتظار ما يأمره الله بفعله!، وكل ذلك كما يقول مع حفظ الشرع، ولكن الشرع المأخوذ عن أمر الله مباشرة لا الشرع النبوي! ولهذا نراه ينصح أقرانه إلى وجوب عدم نسيانهم التقية قائلاً: "إذا بنيتَ حالك على أحكام

[1] - ص١٨٤ نفسه
[2] - ص١٠٤ نفسه
[3] - ص١٠٣ نفسه

الحكم الظاهر، لا يقدر أحد من الخلق على نقضه"[١] أو إدانته، ومن ثم كما يقول "اترك هذا الظاهر وقد وصلت إلى الباطن، بداية ثم نهاية"[٢]، "امتثل الأوامر وانته عن النواهي – الشرعية-. وبعد هذا تعال إلي حتى أتكلم معك وأخبرك بما وراء ذلك"[٣] من الأسرار. واعلم بأنه "لا كلام – في الأسرار – حتى تقطع الفيافي والقفار والبرين والبحرين، بحر الحكم وبحر العلم"[٤]. أي: بحر الشريعة وبحر العقيدة الموجودان في القرآن، ومن أجل إسقاط التكاليف وصفَ حب الله أو مودته لهذا الغرض، يقول: "فإذا صحت المودة زال التكليف"[٥]، وعلى السالك أن "يتحبب إلى ربه بكثرة النوافل- حتى يصل إلى الله عز وجل- فحينئذ يسمى مُراداً، فتنحط عنه أثقال سالكي طريق الله"[٦] أي: التكاليف، "ويدخل في خواص الله، ويطلع على أسرار تخصه، فلا يبوح بها عند غير الله عز وجل"[٧].

المريد هو المبتدئ والمراد هو المنتهي أو الواصل إلى الله و"عبادة المريد مجاهدة، وعبادة المراد موهبة- المريد يعمل للعِوض- والمراد قائم بفعل الله- المريد عمي والمراد يُدلل ويُنعم ويُغذى ويُشهى"[٨]. ولكل

[١] - ص٢٣١ نفسه
[٢] - ص٢٣١ نفسه
[٣] - ص٢٦٢ نفسه
[٤] - ص٣١٧ نفسه
[٥] - ص٢٦١ نفسه
[٦] - ص١٥٨ ج٢ الغنية
[٧] - ص١٥٩ نفسه
[٨] - ص١٥٩ نفسه

منهما أحكامه ورتبته التي تختلف عن الآخر، والعارف "يخاطب الخلق بالحكم الذي هو الأمر والنهي، ولا يخاطبهم بالعلم الذي هو السر"[١]!!

وحقيقة القوم أنهم قالوا بشرعين شرع عن الرسول ﷺ وشرع عن الكشف أو الله عز وجل، والشرع الأول يخص المؤمنين أو العوام الذين أخذوا الأحكام بالخبر، والثاني يخص خواص الخواص أو الواصلين الذين يأخذون أحكامهم عن العيان أو الله مباشرة، وإذا ما كان هناك تناقضاً بين الشرعين استعانوا بمصطلح الأسرار حماية لهم من المطاعن، فـ "المؤمن يقف في أكله وشربه يطلب الإذن من الكتاب والسنة حتى إذا قرب من مولاه عز وجل"[٢]. عندها فالأوامر منه سبحانه وما الفرق بين المؤمن والولي إلا كالفرق بين الظلام والنور، "فأول أمرك ظلمة فإذا جاء الكشف من الله عز وجل وثبت بين يديه صار أمرك ضياء- يميز لك بين الخبيث والطيب ما لغيرك وما لك"[٣] من تشريع. فما دمت في بداية الطريق "تأخذ بأوامر الشرع، وتنتهي عن نواهيه، وهذه الأيام تنقضي وخطواتك تقرب إلى الحق عز وجل، مع مضي الليل ومجيء النهار"[٤]، "اعملوا بالحكم الشرعي حتى يلحقكم ذلك العمل بالعلم "الكشفي"- وكل هذا ثمرة العلم بالكتاب والسنة، اعمل بهما ولا تخرج عنهما، حتى يأتيك صاحب العلم

[١] - ص٢٨٨ الفتح الرباني
[٢] - ص٣١٨ الفتح الرباني
[٣] - ص٢٤٤ نفسه
[٤] - ص٣٤١ نفسه

الله عز وجل فيأخذك إليه"[١]، لتعمل بشريعة أوامره دون غيرها. والواصلون هؤلاء اعلم أن "الحق عز وجل مغذيهم، يغذيهم بما يريد"[٢] من العلم والمعرفة، ومن حيث أن الأولياء كالأنبياء، فاعلم أن "القوم أبدال الأنبياء فأقبلوا منهم ما يأمرونكم به فإنهم يأمرونكم بأمر الله عز وجل ورسوله وينهون بنهيهما"[٣]، فقد "اتبعوا الرسول ﷺ حتى حملهم إلى المرسل- يا منافقون حسبتم أنا للدين مشمِّر"[٤]. وهنا كما نراه قد تعرض لضغوط عظيمة من المؤاخذة حتى اضطر لاستخدام نفقي التقية.

وبالنتيجة إن المريد أو الصوفي في بدايته، يقيم التكاليف ويحافظ على الشرع، ولا إمام له إلا القرآن والنبوة، وإذا ما وصل إلى الله أو أصبح مراداً عن طريق ترقيه المستمر في المقامات، عندها لا تكاليف ولا أثقال ولا شرع من نبي أو كتاب إلا بما يأمره الله به وينهاه عنه، وهو عندها بالفعل على أمر مختلف.

الولي الصوفي على سنة الرسول ﷺ وفي ذلك يقول ابن عربي حسب رواية الشعراني: "فكما تعبَّد الله تعالى محمداً ﷺ بشريعة ابراهيم عليه السلام قبل نبوته عناية من الله، حتى فجأه الوحي وجاءته الرسالة، فكذلك الولي الكامل يجب عليه معانقة العمل بالشريعة المطهرة حتى يفتح الله

[١] - ص٢٢٠ نفسه
[٢] - ص٢٣٩ نفسه
[٣] - ص١٩٠ نفسه
[٤] - ص١٩٠ نفسه

تعالى له في قلبه عين الفهم عنه – تعالى – فيلهم معاني القرآن ويكونوا من المحدَّثين ثم يرده الله تعالى بعد ذلك إلى إرشاد الخلق كما كان رسول الله ﷺ حين أرسل"[١].

فالعمل على الشريعة، العمل على التكاليف يكون للصوفي في بدايته فقط، وفي الوصول يختلف الأمر، فكما أن محمداً ﷺ قد تعبَّد ربه قبل الوحي بشريعة غيره كذلك الأولياء يتعبدون بشرع محمد حتى يكون لهم اليقين أو الفتح والفهم الذي مآله تأويل شرع محمد ﷺ، أو اتخاذ الشرع عن الله مباشرة، وكما "نُعت المحب – كما يقول – بأنه جاوز الحدود بعد حفظها كأهل بدر فإنهم مما جاوزوا الحدود بعد حفظها، فقال لهم: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم-. "والصوفي أيضاً كان قبل هذه الصفة من أهل الحدود فجاوزها بعد حفظها"[٢]، فلا تحجير عليه بعد المحبة، بعد مقام افعل ما شئت فقد غفرت لك "ومن أحبه من عباده لم تضره الذنوب ولا قدحت في منزله"[٣]، "فلا تتحرك ذرة – من الولي – إلا بإذنه – تعالى – فكيف يقول "الله": لمَ؟ وما فعل إلا هو!"[٤]. أي: كما سقطت المؤاخذة عن أهل بدر لأنهم قد أصبحوا أهل من الجنة، كذلك لا مؤاخذة على الصوفي ولا تحجير عليه بعد الكشف، أو بعد أن كان له نصاب دخول الجنة أو تجاوز

[١] - ص٢٢ ج١ الكبريت الأحمر
[٢] - ص٣٥٧ – ٣٥٨ ج٢ بـ١٧٨ الفتوحات المكية
[٣] - ص٣٥٩ نفسه
[٤] - ص٣٦١ ج٢ بـ١٧٨ نفسه

الحدود إلى شرع مختلف، وبوصول العارف لأن يكون محبوباً من الله، أو إلى توحيد لا فاعل إلا الله، يكون سقوط التكاليف عن كاهله، فكيف يقول تعالى للمجبر على أفعاله لمَ لمْ تُقم التكاليف ولا فاعل إلا هو؟! وبالجبر لا معصية وكل أحوال الصوفي عندها طاعات!

القول بالمراتب من ضرورات المنهج الصوفي وكيف لا والتكاليف كلها مما يخص الظاهر "والمحبة – عند ابن عجيبة – لها بداية ووسط ونهاية. فأول المحبة وبدايتها ملازمة امتثال الأمر واجتناب النهي "القرآني والنبوي"-. ووسطها لهج اللسان بالذكر وتعلق القلب بالشهود، ونهايتها لا تُدرك بالعبارة ولا تلحقها الإشارة"[1]، حيث زوال الفرق بين الخالق والمخلوق ولا تكاليف عندها.

والمراتب عند الرجل هي: عابد أو "إسلام"، مُشاهد أو "إيمان"، عارف أو "إحسان"، ولا بد للصوفي في سفره من المرور عبر هذه المراتب، حتى يكون له الوصول إلى أعظمها، "فالإسلام أولاً، ثم الإيمان، ثم الإحسان، إن العبد ما دام مشغولاً بالعبادة الظاهرة الحسية سمي ذلك المقام مقام الإسلام"[2]. فالعابد أو المسلم منشغل بما سوى الله وغايته الاستدلال من الصنعة على الصانع، أما صاحب الإيمان الذي برأيه صاحب عيان، فلا استدلال عنده لأنه لا استدلال مع العيان أو

[1] - ص١١٢ – ١١٣ ج٢ إيقاظ الهمم
[2] - ص٤١ ج٢ نفسه

المشاهدة، أما العارف فله تلاشي كل ما سوى الله، ولا استدلال عندها والكل في الفناء سواء. ويقول: إن العبادة والعلم بغير الكشف من أعظم الحجب التي يجب على السالك هتكها "فسبحان من حجب العلماء بعلمهم عن معلومهم، والعبَّاد بعبادتهم عن معبودهم والله من وراء ذلك كله"[1]، ومن وصل إلى الله فلا شيء من ذلك لديه، ومن أجل المقارنة بين العلماء أو الفقهاء والعارف يقول: "العالِم محجوب والعارف محبوب. العالم يدلك على العمل – أو التكاليف – والعارف يخرجك عن شهود العمل، العالم يدلك على محافظة الصلوات، والعارف يدلك على ذكر الله، العالم يدلك على العمل خوفاً وطمعاً، والعارف يدلك على العمل محبة وشكراً"[2].

فالعارف حسب رأيه محبوب من الله ولا اهتمام له بالأعمال أو التكاليف أو بما لها من أجر، وبالذكر والكشف والعيان والوصول والمحبة والشكر، كل ذلك استخدمه كأسلحة لإسقاط التكاليف، أو حتى أصبحت على النقيض من ذلك كله.

لا تكاليف إلا مع الفرق بين المكلِّف والمكلَّف، الخالق والمخلوق، والشاذلي يخاطب الواصل بقوله: اجعل الجمع في باطنك مشهود والفرق على لسانك موجود"[3]. فإسقاط التكاليف بحجة الجمع يعتبر من الأسرار

[1] - ص٤٣ نفسه
[2] - ص٢٣٣ ج٢ الفتح الإلهي
[3] - ص٢٠٩ ج٢ إيقاظ الهمم

التي لا تحكى إلا لأهلها، فلا تكاليف مع الجمع لزوال الفرق بين العبد والرب، وهذا سر لا بد له من التقية، وبالتقية وستراً لأسراره يقيم الصوفي التكاليف على الملأ.

التكاليف عند الشيخ عبد الغني النابلسي في أحط المراتب أو الدرجات "فالمحبة برأيه أشرف من العبادة حيث كان وضع العبادة للمعاوضة ووضع المحبة للقربة"[١]. ولا بد للسالك في التطور والترقي في المقامات "وكلما ترقى العبد في ذلك مرتبة وجد ما قبلها حجاباً عليها"[٢]. فالتكاليف للمريدين، إنها للسالك كالباب الذي يحجبه عن الدخول "ومن لم يقف على الباب – كما يقول علي بن علوان – لم يحظ بمنازل الأحباب"[٣].

فالصوفي في تعامله مع التكاليف لا يراها إلا في الدرك الأسفل في مقامات سفره إلى الله، فهي الباب والمقبلات والحجاب، ومن أراد الوصول والقربى لا بد له من التخلي عن ذلك كله لأنه لا تحلي قبل التخلي، التخلي عما سوى الله، "وحسب المؤمن – كما يقول أبو يزيد – من عقله، أن يعلم أن الله غني عن عمله"[٤]. أي: لولا بلاهة المؤمنين ما عبدوا الغني سبحانه عن عبادتهم التي على الخوف من النار والطمع بالجنة!

[١] - ص١٥٢ شروح رسالة الشيخ أرسلان
[٢] - ص١٥٤ – ١٥٥ نفسه
[٣] - ص٢٢٧ نفسه
[٤] - ص١٣٥ شطحات الصوفية

ـ التكاليف للرياضات:

التكاليف في الإسلام كما هو معروف، ذات أغراض نفسية واجتماعية واقتصادية، وصولاً إلى التآلف الاجتماعي، أو للمجتمع الأفضل، وحيث كان التصوف قبل الإسلام، فكأنما التكاليف لمحاربة هذه

الظاهرة، أو كأن هذه الظاهرة لعودة الإسلام إلى ما كان قبله، وبالتالي فلا لقاء بين التصوف والتكاليف، فإن كانت التكاليف فلا تصوف، وإن كان التصوف فلا تكاليف، وهذا ما أراده الله عز وجل وبالتكاليف كانت فضيحتهم.

التكاليف أعمال بدنية، وابن عجيبة يقول: الأعمال البدنية هي وسيلة للأعمال القلبية"[1]. أي هي رياضات ما هي عبادات!

التكاليف وسيلة من وسائل الرياضة لمجاهدة النفس وما هي طاعة وعبادة، "فالشريعة كما يقول النابلسي مجاهدة والحقيقة مشاهدة"[2]. وبهذا المعنى كان توفيقهم حسب ظنهم، بين الظاهر والباطن، فإذا أردت مثلاً تحصيل ملكة إدراك خفايا الآخرين وأسرارهم، يقول ابن عجيبة: إن "الاطلاع على أسرار العباد قد يُدرك بكثرة الطاعات وطلب الكرامات وخوارق العادات والاطلاع على المغيبات"[3]، "وإذا صفت القلوب في الصلاة – كما يقول الغزالي – حظيت بالمشاهدة. فهناك تشاهد الأفلاك والأملاك"[4]، بل ورأى أن "مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه"[5]، ليصبح مرآة تنعكس عليها المعارف، "وعلوم

---

[1] - ص٢٢ ج١ إيقاظ الهمم
[2] - ص٥٦ شروح رسالة الشيخ أرسلان
[3] - ص٤٩ – ٥٠ ج٢ إيقاظ الهمم
[4] - ص٦٣ سر العالمين
[5] - ص١٤٣ الإنسان عند الغزالي

الحقائق – عند النابلسي – هي ثمرات الأعمال والطاعات"[١]، "وكل تقوى وعمل مخصوص – عند ابن عربي – له علم خاص لا يكون إلا له"[٢]، فالصوم كما يرى يورِّث "لقاء الله وهو المشاهدة. فكان الصوم أتم من الصلاة- وأما الحج- "فلا نفع منه" لذلك تأخر في القواعد التي بُني الإسلام عليها"[٣]، والسهروردي استخدم التكاليف للرياضات أيضاً، ونادى "بالعبادة الدائمة مع قراءة القرآن والصلاة والصوم- ويرى أن أقواه أثراً – أي الصوم – مما أُخِّر فيه الإفطار إلى السَحَرْ"[٤].

فالصوفي لا يرى المنفعة في كل التكاليف، فما كان مجدياً لمنهجه اتخذه وسيلة ودونما التزام بالمعنى الشرعي، وابن عجيبة يقول: "ربما تجد من المزيد في الفاقة ما لا تجده في الصوم والصلاة"[٥]، بل ورأى أن كثيراً "من العلوم الظاهرة لا مدخل لها في السير والسلوك إلى ملك الملوك، كالدماء والحدود والعتاق"[٦]، والطريقة الشاذلية على العموم لا ترى نفعاً من النوافل، ولذلك أنشأوا عبادات خاصة بهم وقالوا أنها "سنة

[١] - ص٢٩٤ التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس
[٢] - ص٥٧٦ ج١ بـ٧٠ الفتوحات المكية
[٣] - ص٢٥٨ ج١ بـ٤٧ نفسه
[٤] - ص١١٥ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة
[٥] - ص١٥٥ ج١ الفتح الإلهي
[٦] - ص١٦٠ ج١ نفسه

حسنة"[1]. وابن الفارض لم ير في الحج أو التكاليف الشرعية أية منفعة لمنهج الرياضات، وفي ذلك يقول:

"لا بَـرى جـذب البُـرى جسـمك   واعتظت من جدب البُرى والفأي بَـيْ"[2]

والمعنى أن "جذب البرى" أي التكاليف أو الحج "لا بَري فيه" أي أنه لا يؤدي إلى نحافة الجسم وما وراءها أي التكاليف إلا "الفأي" أو البُعد السمين أو الحجاب الغليظ وهو "البَيْ" وهو كل العِوض التي تعطيه. فليس كل التكاليف تصلح للرياضات، فما كان ملائماً منها أخذوه وإلا قوَّموه، ولهذا كان تحررهم من التحديد الشرعي للصيام ليكون على معنى الجوع، إلا أن "المفهوم الإسلامي – يتعارض – مع تصور الصوفي للتكاليف- فالإسلام ليس رياضات روحية كما أرادوه، وإنما هي عبادات خاشعة يبتغى بها وجه الله"[3].

[1] - ص٦٠ ج١ الكبريت الأحمر
[2] - ص٣٦٤ الصوفية في شعر ابن الفارض
[3] - ص١١ الصوفية في نظر الإسلام

ـ التكاليف للباطن لا للجوارح:

التكاليف للصوفي في البداية فقط، إنها للمبتدئ، ولكل شيء ظاهر وباطن، والتكاليف التي موضوعها الجوارح لها باطن مختلف، وباطنها هو القلب، فعلى القلب تكون التكاليف، وهنا تكون قيمتها والغزالي يقول: "إن لكل عبادة ظاهراً وباطناً"[١]، والباطن لديه نظافة القلب ليكون وسيلته في المعرفة، وابن عربي يقول: "فالعبادة ظاهرها العمل وباطنها المعرفة"[٢].

الظاهر سواد ولا بقاء له إلا إلى حين، والشيخ عبد القادر الجيلاني يقول: "يا قوم اعملوا بهذا الظاهر، بهذا السواد على البياض حتى يحملكم على العمل بباطن هذا الأمر، إذا عملت بهذا الظاهر أداك إلى فهم الباطن"[٣]. عندها نكون في حظيرة التأويل، "وكل من صحب أهل المعاني – أو أهل التأويل كما يقول ابن عجيبة – وانقلبت همته لبلاد المعاني حتى صارت عبادته باطنية معنوية تلطفت في حقه الأواني ولم ير إلا المعاني"[٤]. فصاحب التأويلات الذي أصبحت عبادته باطنية لم يعد ملتفتاً إلى الأواني أو الجوارح، فليس من عبادة في إقامة التكاليف، إنها الرمز لغيرها، فلا عبادة إلا للقلب، والدباغ يرى أن صلاة الظاهر تلك التي

---

[١] ـ ص٢٣٦ ج١ إحياء علوم الدين
[٢] ـ ص٢٠٩ فلسفة التأويل
[٣] ـ ص٣٠ الفتح الرباني
[٤] ـ ص٢٤ ج٢ إيقاظ الهمم

يقيمها المسلمون "إنما شُرِّعت لعجز أكثر الخلق عن صلاة الروح، والعارفون وإن كانوا يصلون بأرواحهم، فإنهم يصلون بذواتهم أيضاً لجري العادة، وحفظاً لظاهر الشريعة"[١] لا غير. فمن أجل ما اعتاد عليه المسلمون وحفظاً لظاهر الشرع يصلي الأولياء، لا لأنها من العبادات، ولا صلاة أو عبادة على الحقيقة إلا للروح لا للعمل أو الجوارح، "فالعمل – كما يقول ابن عربي – صورة والعبادة روح تلك الصورة"[٢]. فالمطلوب من العبادات روحها لا تلك الحركات والأعمال كالسجود والركوع والتكبير وإلى ما هنالك، "فالعبادات العملية – عند النابلسي – مبنية على أسرار وإرشادات غيبية وضع الشارع تلك الأفعال الحسية لها بإزاء تلك الأسرار والإشارات المغيبة"[٣] أو الرموز لا أكثر ولا أقل، ومن أفلح عرف المرموز الذي هو أبعد ما يكون عن أفعال الجوارح وحركاتها، والأولياء "أدركوا أن كل هذه أفعال لا قيمة لها إلا من حيث هي مظهر خارجي لحياة روحية باطنة"[٤]، "وأن جميع المتصوفين متفقون على أن ظاهر العبادة كالصلاة والصوم- ليست ضرورية، وإنما الضروري أن يجتهد المتصوف في الاقتراب من الله – بطريقة يقتنع هو وحده

---

[١] - ص٣٠١ – ٣٠٢ ج٢ الإبريز
[٢] - ص٤٠٩ ج٢ بـ١٩٨ الفتوحات المكية
[٣] - ص٢٩٤ التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس
[٤] - ص٥٤ في التصوف الإسلامي وتاريخه

بصحتها"[1]، ولا صحة لدى القوم إلا في الباطن ولذلك قدموا الباطن على الظاهر"[2]. ولكن لا بد أولاً من الأخذ بظاهر الشريعة كما يقول الغزالي: "ثم الترقي إلى أغوارها وأسرارها. فإن سبيل الدين غامض"[3]، ولما كان القلب موطن الأسرار ومهبطها قال الجيلاني: "ويلك طاعة الله عز وجل بالقلب لا بالقالب"[4] أو الجوارح، فالقلب هو الميزان وبه تكون القربة "والمعاصي إنما حرمت – كما يقول الدباغ – لأن فيها قطعاً للعبد عن الله عز وجل، فإذا كانت الطاعات – البدنية – تقطع العبد كانت معاصي بلا إشكال"[5]، والهروي عند حديثه عن المقام الثالث في الصفاء القلبي قال: إن به أو بهذا المقام "تطوى خسة التكاليف في عين الأزل"[6]، وعند حديثه عن الدرجة الثانية للسرور قال: إنها تؤدي إلى "فك رق التكليف"[7]. ولكن كما يقول ابن القيم الجوزية "حاشا التكاليف أن توصف بخسة أو تلحقها خسة"[8]، واعلم أيضاً أن "رق التكاليف لا يفك إلى الممات"[9] لا كما زعم أولياء التصوف.

---

[1] - ص١٩ التصوف في الإسلام
[2] - ص٢٠٧ الفتح الرباني
[3] - ص٧٥ ج٣ إحياء علوم الدين
[4] - ص٤٣ الفتح الرباني
[5] - ص٤٨٣ ج١ الإبريز
[6] - ص١٥٠ ج٣ مدارج السالكين
[7] - ١٦٥ ج٣ نفسه
[8] - ص١٥٤ نفسه
[9] - ص١٦٥ نفسه

للأولياء صلوات وعبادات تختلف في طبيعتها ومعناها عن صلوات المسلمين وتكاليفهم "فالعوام – عند ابن عجيبة – حدُّ صلواتهم أوقاتهم، والعارفون في الصلاة على الدوام، قيل لبعضهم هل للقلوب صلاة؟ فقال: نعم. إذا سجد "القلب" لا يرفع رأسه أبداً"[1]. فليس بعد سجوده من معصية وإن فعل ما فعل، ابتداء من ترك التكاليف انتهاء باجتراع الموبقات، حيث لا سلطان عليه بعدها من مقلِّب القلوب! وابن الفارض يقول: وقلبي ساعة منك لا يخلو"[2]. فأنَّى له عندها القيام بالتكاليف وهو في صلاة دائمة أو سجود دائم بين يدي الله عز وجل!

القلب هو الحكم ولسان الميزان، فقد "دخل رجل على أبي يزيد البسطامي رحمة الله عليه، فبقي ينظر يميناً وشمالاً! فقال أبو يزيد له: ما بك؟ قال: أريد موضعاً نظيفاً أصلي به. فقال له: طهِّر قلبك وصل حيث شئت"[3]. أي: ولو على المزبلة! وهنالك أيضاً تأويلاً آخر لدى القوم، حيث روى ابن عجيبة: "إن سيدنا عيسى عليه السلام مرَّ برجل نائم والناس يتعبدون، فقال له عيسى عليه السلام: قم نتعبَّد مع الناس. فقال: تعبدت يا روح الله! فقال له: وما عبادتك؟ قال: تركت الدنيا لأهلها. فقال له: نم، نعمت العبادة هذه"[4]. فمن اتخذ الزهد والخلوة لنقاء قلبه فلا تكاليف عليه.

---

[1] - ص٣٨ ج١ إيقاظ الهمم
[2] - ص٢٤٣ التصوف في شعر ابن الفارض
[3] - ص١٢٢ الفتح الرباني
[4] - ص٧٨ ج١ إيقاظ الهمم

والغزالي يروي مأولاً التكاليف بالأوجب قائلاً: "كان عمر يقول لأبي موسى رضي الله عنهما: ذكِّرنا ربنا، فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط، فيقال: يا أمير المؤمنين الصلاة، الصلاة. فيقول: أولسنا في صلاة. إشارة إلى قوله عز وجل "ولذكر الله أكبر""[1]. أي: من كان في الذكر كتلاوة القرآن والأوراد وإلى ما هنالك فلا جناح عليه من ترك الصلاة!

والشيخ عبد الكريم الجيلي يأول الزكاة إلى معنى قلبي مختلف عما هو معروف في القرآن، فالزكاة برأيه هي "التزكي بإيثار الحق على الخلق، أي إيثار شهود الحق في الوجود على شهود الخلق"[2]، والجنابة التي تعني عند الدباغ الإنقطاع والبعد، نراه يقول: ومن داوم على مراقبة ربه "حالة الوقاع- لا يجب عليه غسل"[3]، إلا أن أمثال هذه التأويلات برأي الغزالي زندقة وشيطنة، حيث يقول: "وبعضهم – أي بعض المتصوفة – يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النظر إلى القلوب- ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام- وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها"[4]. ولكن من هم بالعين يا حجة الإسلام؟! لا جواب! وعلى كل حال فإننا نرى أن الفصل بين الجوارح

---

[1] - ص٢٨٠ ج١ إحياء علوم الدين
[2] - ص٣٠ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي
[3] - ص٤٧٥ ج١ الإبريز
[4] - ص٤٥٠ ج٣ إحياء علوم الدين

والتكاليف أو تأويل التكاليف لمعاني باطنية رمزية أو جعلها في الدرك الأدنى من الطريق ليس إلا لإثبات الذات والمضاهأة، وكل من فعل ذلك فقد حدد نفسه بالعين كائناً من كان.

ـ الحج والتأويل الصوفي:

التكاليف على الحقيقة برأي الصوفي للقلب وما ارتباطها بالجوارح إلا من باب الرمز الذي يجب تأويله، فليس من أهمية للعمل عند العارفين ولا معنى للسفر إلى الحج، فالمقامات باطنية وإليها يكون السفر. ولرابعة العدوية قصة طريفة في علاقتها بهذا المعنى: فلما كانت في طريقها إلى الحج ذات مرة، نفق حمارها فأحيته، ثم لحقت بالقافلة، ومرة أخرى ذهبت دحرجة "فبلغت الكعبة في سبعة سنين"[١]. كل ذلك في بداية أمرها، ولكنها فيما بعد وقد كانت في الطريق خرجت الكعبة لاستقبالها، وعندما تعجب ابن أدهم حيث لم يجدها لما وصل إلى مكانها عللت رابعة تفوقها عليه بالفاقة أو بعدم اتخاذها للصلوات منهجاً في طريقها كما فعل، حيث كان يصلي ركعتين عند كل خطوة، وعندما أصبحت من أهل التمكين كان لها الفصل ما بين الكعبة ورب الكعبة، وأصبحت تقصد لا إلى الكعبة وإنما إلى رب الكعبة، ومن ثم "صار في وسعها أن تستغني نهائياً عن هذه الفريضة لأنها ستجد الله في نفسها، فما حاجتها بعد إلى مشاهدته عند الكعبة"[٢] التي لم تعد بنظرها كما تقول إلا ذلك "الصنم المعبود في الأرض وأنه ما ولجه الله ولا خلا منه"[٣]، "إلى حد أنها لم تعد تشعر بالحاجة إلى أداء فريضة الحج بالمعنى المادي، فانقطعت عنه في سنواتها

---

[١] ـ ص٣٩ رابعة العدوية

[٢] ـ ص٤٢ نفسه

[٣] ـ ص١١٢ نفسه

الأخيرة- قائلة: لا أريد الكعبة، بل رب الكعبة"[1]. وهل إلا القلب قد وسع الحق؟! وليس هذا لمن حج فقط، وإنما لكل من سلك دروب الباطن.

أما أبو يزيد البسطامي فله حكاية مروية في مخطوط له بالمكتبة الأهلية بباريس تقول: إنه حج خمسة وأربعين مرة، وبينما كان على عرفات راح ينادي: "من يشتري مني خمسة وأربعين حجة برغيف خبز؟ فقال رجل: أنا. فأخذ منه الرغيف وألقاه إلى كلب فأكله"[2]، وبعدها وضع أبو يزيد الصليب في عنقه والإنجيل على صدره، وذهب إلى دير للنصارى، ليحاور الرهبان هناك، وبعد أن تغلب عليهم أسلموا جميعاً! والمعنى من الحكاية أنه لا معنى ولا نفع من الحج، وبالمقارنة مع إصلاح النصارى أصبح الحج كرغيف يأكله كلب، وبهذه الحيلة كان إسقاطه لهذه الفريضة والاستهزاء بها.

وفي رابع مرة لذهاب أبي يزيد إلى الحج، يقول: "وخرجت الرابعة فنوديت في بعض المتاهات: إلى أين يا أبا يزيد؟- خلفته ببسطام "أي الله" فنبهت من غفلتي"[3]، وقال أيضاً: "كنت أطوف حول البيت أطلبه، فلما

---

[1] - ص٤٥ نفسه
[2] - ص٢١٨ شطحات الصوفية
[3] - ص١٦٤ شطحات الصوفية

وصلت إليه رأيت البيت يطوف حولي"[1]، ليقول: "المؤمن الجيد الذي تجيئوه وتطوف حوله وترجع ولا يُشعر به حتى كأنه أُخذ"[2].

وسافر مرة فلقيه القطب في الطريق وأمره أن يعود قائلاً له: "إن الله هو ما تراه فيَّ بعين قلبك. لأنه اختارني بيتاً له-. فلا تظنن أنني شيء غيره"[3].

الكعبة صنم، الكعبة تأتي لتطوف حول العارف، وتخرج إلى لقائه، ومن أراد الله سيجده في قلبه، والطواف بالقطب هو الحج على الحقيقة، ومن أعطى الفقراء نفقة حجة سقط عنه الذهاب إلى الحج، وها هو أبو يزيد يقول أيضاً: خرجت "إلى الحج فاستقبلني رجل في بعض المتاهات، فقال: أبا يزيد إلى أين؟ فقلت: إلى الحج. فقال: كم معك من الدراهم؟ قلت: معي مائتي درهم. فقال: طف حولي سبع مرات وناولني المائتي درهم فإن لي عيالاً، فطفت حوله فناولته المائتي درهم"[4]، والحلاج أيضاً أول العبادات التي من جملتها الحج، فقد اعتقد "أن شوقنا إلى الله يجب أن يمحو في نفوسنا صورة الكعبة كيما نجد من أقامها"[5]، لأنها من جملة ما سوى الله. وقد قال أيضاً بمشروعية الحج بالهمة، "فإذا أراد – المرء –

[1] - ص١٠٠ النور من كلمات أبي طيفور
[2] - ص١٥٩ نفسه
[3] - ص٤ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة
[4] - ص١٦٤ النور من كلمات أبي طيفور
[5] - ص٦٨ شخصيات قلقة في الإسلام

الحج ولم يمكنه، أفرد في داره بيتاً لا يلحقه شيء من النجاسة، ليطوف حوله. فإذا فعل ذلك قام مقام الحج"[1]، وللرجل تأويلات كثيرة أوردها ابن الجوزي في المنتظم لمن أراد التعرف إليها.

ولكن ما حقيقة طواف الكعبة بأولياء التصوف، وما الذي تعنيه تأويلاتهم على الحقيقة؟ هذا ما سوف نسأل عنه الإمام الغزالي حجة الإسلام طالما نسب المتأولين إلى الشيطنة والزندقة!

المسافر ببدنه، المسافر إلى الحج، اعلموا أنه من أهل البدايات، إنه من العوام، وفي ذلك يقول الغزالي: "ثم ما دام المسافر مفتقراً إلى أن يبصر عالم الملك والشهادة بالبصر الظاهر فهو بعد في المنزل الأول من منازل السائرين إلى الله، والمسافرين إلى حضرته، وكأنه معتكف على باب الوطن لم يفض به المسير إلى متسع الفضاء، ولا سبب لطول المقام في هذا المنزل إلا الجبن والقصور"[2].

أي: من كان شجاعاً أعطى الحقيقة حقها بتجاوز هكذا سفر، إلى السفر الحقيقي الذي فيه إفراد القصد إلى الله والزهد في كل ما سواه، حتى الوصول إلى الكشف والعيان، وعندها لا كعبة ولا حج إلا للمبتدئ في السلوك أو الجبان من الواصلين الذي حجه معلول بالتقية، وإن ذهبت إلى

---

[1] - ص٣٢٢ دراسات في التصوف الإسلامي
[2] - ص٢٤٧ ج٢ إحياء علوم الدين

الحج على طريق العوام والمحجوبين فاعلم أن للحج أسراراً لا يعلمها هؤلاء، واعلم أن الأبدال والأوتاد هم سر الحج، "فالرحمة – كما يقول الغزالي – إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب العزيزة من أوتاد الأرض-. وكأن اجتماع الهمم والاستظهار بمجاورة الأبدال والأوتاد المجتمعين من أقطار البلاد هو سر الحج وغاية مقصوده"[١]. ومن أدركهم أو سعى إليهم، أو لمجاورتهم، له تحصيل أسرار الحج وغايته أينما كان ذلك السعي وأينما كان الإدراك!

الحج للعوام لا للأولياء خواص الخواص، يقول الغزالي مستصوباً طواف الكعبة بالعارفين: "فمن الغرائب أن يدأب في الطواف بآحاد المساجد من أمرت الكعبة أن تطوف به، ومن الغرائب أن يطوف في أكناف الأرض من يطوف به أقطار السماء"[٢].

وكيف لنا بالله عليك أن نطالبه بتحديد الزنادقة وأولياء الشيطان بالعين، وها هو يرى أن الحج غير جائز للأولياء والأقطاب الذين تطوف بهم الكعبة وأقطار السموات عن أمر إلهي؟!

والشعراني الذي سعى كل جهده لشرعنة التصوف يقول هو الآخر: "الكامل تصير عباداته روحانية لا جسمانية، فرجوعه إلى الكثائف من

[١] - ص٢٧٠ ج١ نفسه
[٢] - ص٢٤٧ ج٢ نفسه

أصعب الأمور عليه، إلا أن يؤمر بذلك"[١]. أي: عندما يأمره الله أمراً مباشراً دون واسطة بالعودة إلى الفرق إلى التكاليف، عندها يعود للعبادات الجسمية، وما لم يؤمر فلا تكاليف عليه وكل عباداته روحية عن طريق التأمل والذكر والأوراد ولا شيء آخر.

وعن سخرية أولياء التصوف بعبادات العوام أو المسلمين "يقول ابن كثير: إن ابن سبعين كان إذا رأى الطائفين حول البيت يقول عنهم: كأنهم حمير حول البدار. وأنهم لو طافوا به هو لكان ذلك أفضل من طوافهم بالبيت"[٢]، "وكان يقول – أي ابن سبعين - : إقبالهم على الجمعية أفضل لهم"[٣] مما هم عليه من الفرق الذي عباداتهم عليه.

والشيخ علي ولده "سئل رضي الله عنهم عن مريد ادعى أنه شهد كمال أستاذه ثم أراد السفر عن حضرته لزيارة مكة أو المدينة أو بيت المقدس"[٤] فهل يجوز له ذلك؟ فقال: "وكيف يشتغل عن بيت وضعه الحق لنفسه ببيت وضعه للناس"[٥]. فإلى قلب شيخه الذي وسع الله، أن يتجه في عمرته أو حجه لا إلى بيت من الحجر وضعه الله لعامة الناس أو للعوام من الناس.

---

[١] - ص١١٧ ج٢ الكبريت الأحمر
[٢] - ص٥٥ ابن سبعين وفلسفته الصوفية
[٣] - ص٢٦٠ ج١ مدارج السالكين
[٤] - ص٢٧ ج٢ الطبقات الكبرى
[٥] - ص٢٨ نفسه

وابن الفارض استهزأ برمي الجمار، فكيف يكون حسب ظنه ولا فاعل إلا الله، وبهذا أنشد قائلاً:

"حـاظري مـن حاضـري مرمـاك بـا   دي قضـاء لا اختيـار لـي شـيء" [1]

فالذي منعني من حضور رمي الجمار بيدي "باديْ" قضاؤك يا الله الذي معناه لا فاعل إلا أنت، فالله هو الذي منعه من الذهاب إلى الحج الذي فيه رجم الفتى إبليس!

أما النابلسي فقد أول الأشواط السبعة بتأويلات عجيبة"[2]، كما أوَّل رمي الجمار برمي الصفات السبع المذمومة للنفس"[3]، وأوَّل الركن بـ "ركن العلم بالله الذي بنيت عليه كعبة القلب الإنساني الكامل الإيمان، والحجر الأسود بالنفس الإنسانية"[4]، حتى أصبح الحج وفق طبيعة التأويل الصوفي رمزاً "للبعد عن المعاصي، وأصبح الإحرام خلع الشهوات."[5]

---

[1] - ص٣٦٣ الصوفية في شعر ابن الفارض
[2] - ص٣٦٢ ـ ٣٦٣ نفسه
[3] - ص٣٦٤ نفسه
[4] - ص٢٠ نفسه
[5] - ص٧٧ في التصوف الإسلامي وتاريخه

- الحج وابن عربي:

لقد تميز ابن عربي بصراحته حتى كان بحق الممثل الشجاع لكل المخنثين من أولياء التصوف الذين اكتفوا بالتلميح تارة وبالغمز تارة وبالتقية تارة أخرى، وهو الفارس المقدام الذي تمناه الغزالي بحق.

يقول ابن عربي: إن الله لم يأمرنا بالحقيقة بالذهاب إلى الحج أو السفر الجسمي إلى الكعبة وإلى ما هنالك، وإنما العوام فهموا ذلك وتلك هي المسألة، وله تفسير عجيب لقوله تعالى: "وله على الناس حج البيت" يقول فيه: "وقرئ بكسر الحاء- فمن فتح الحاء وجب عليه أن يقصد البيت- ومن قرأ بالكسر- فمعناه أن يراعي قصد البيت- فيقوم في الكسر مقام البيت ويقوم في الفتح مقام خادم البيت- فبالكسر يقصد الله"[1]. فالقصد الصحيح إلى الله إذن لا إلى البيت ومن قرأها على الكسر كانت بمثابة البيت "فلا يصح أن تقصد بالمشي الحسي من هو معك – أي الله – ثم أنه دلك على البيت الذي هو مثلك- دلالة على نفسك في قوله: "من عرف نفسه عرف ربه"- ثم جاء بلفظة البيت لما فيه من اشتقاق المبيت""[2]. فالقلب هو البيت الذي وسع الحق فإليه القصد لا إلى الكعبة التي ضربها الله مثلاً ودلالة على قلبك، فإليه الحج لا لغيره، ومن عرف نفسه عرف ربه "ولما جعل الله تعالى قلب عبده بيتاً كريماً وحرماً عظيماً وذكر أنه

---

[1] - ص٦٦٨ ج١ بـ٧٢ الفتوحات المكية
[2] - ص٦٩٥ نفسه

وسعه حين لم يسعه سماء ولا أرض علمنا قطعاً – كما يقول – أن قلب المؤمن أشرف من هذا البيت – أو الكعبة – وجعل الخواطر التي تمر عليه كالطائفين"[1] حول الكعبة، فالخواطر الإلهية تطوف حول قلب العارف، وأين منها طواف البشر بأجسادهم حول الكعبة، وليس هذا فحسب، فلما كان القلب قد وسع الحق "فلهذا تحج الأسماء الإلهية بيت القلب"[2] قلب الصوفي!!

القلب هو البيت العتيق، إنه "البيت العتيق. ويا عجباً كيف يصل إليه – أي كيف يصل السالك إلى الله تعالى – وهو عنده. كما قال أبو يزيد. كيف يُحشر إليه من هو جليسه"[3].

فالكعبة بالنسبة للولي الصوفي حجاب والسفر إليها ضلالة وابن عربي يقول: "وقد نظرت يوماً إلى الكعبة وهي تسألني الطواف بها، وزمزم يسألني التضلع من مائه. فخفنا الحجاب بهما لعظيم مكانتهما من الحق عما نحن عليه في أحوالنا من القرب الإلهي"[4].

قلب الولي أفضل من الكعبة، وأحق منها بالتقديس، فقد "كانت بيني وبين الكعبة في زمان مجاورتي بها مراسلة وتوسلات ومعاتبة. وإني كنت أفضل عليها نشأتي. وأذكِّرها من حيث ما هي نشأة جمادية.

[1] - ص٦٦٦ ج١ بـ٧٢ نفسه
[2] - ص٦٦٧ نفسه
[3] - ص١٠٩ ج٤ بـ٤٧٥ نفسه
[4] - ص٧٠٠ ج١ بـ٧٢ نفسه

وأعرض عما خصها الله به من- تقبيل حجرها"[1]. ولافتخاره عليها ذات مرة كادت تفتك به وهو يطوف حولها، حتى مدحها فرضيت عنه واحتفظت بشهادته في التوحيد بباطن الحجر الأسود إكراماً له"[2]. وبذلك يكون إرغامه للمسلمين حسبما زعم في التوجه إلى توحيد لا موجود إلا الله!

البيت العتيق غير جدير بالطواف وعند التقاء ابن عربي بالروح "بدر الحبشي" أو بدر الكشف بعد الظلمة كان حديثهما في الأسرار التي منها قوله:

"قلت عند الطواف كيف أطوف وهو عن درك سرنا مكفوف"

-. وعلمت أن الطواف بالبيت كالصلاة على الجنازة"[3]، فطواف العارف الحي بالجماد الذي لا حياة فيه، يشبه صلاة الحي على الميت، وشتان بين الميت والحي!

"وهذا جماد لا يحس ولا يرى وليس له عقل وليس له سمع
فقال شخيص هذه طاعة لنا قد أثبتها طول الحياة لنا الشرع

---

[1] - ص٧٠٠ نفسه
[2] - ص٧٠٠ – ٧٠١ نفسه
[3] - ص٤٧ ج١ بـ١ نفسه

فالعوام يقولون أن الطواف هو الطاعة لأمر الله، إلا أن للطواف معنى عند أهل الحقائق والكشف لا يعرفه الجهلة والمحجوبون، فقد تجلى الله لابن عربي مرة وقال مأولاً: "فإن بيتي هناك بمنزله الذات، وأشواط الطواف بمنزلة السبع صفات، صفات الكمال لا صفات الجلال- فسبعة أشواط لسبع صفات، وبيت قائم يدل على ذات، غير أني أنزلته في فرشي وقلت للعامة هذا عندكم بمنزلة عرشي- وبيتي الذي وسعني قلبك المقصود- فالطائفون بالكعبة بمنزلة الطائفين بقلبك- والطائفون بجسمك كالطائفين بالعرش"[2]، فـ "أنت الأنا، وأنا أنا"[3]، فالله إذن هو المؤول للأشواط بالصفات، وهو المؤول للكعبة بالقلب، وهو الآمر بالطواف حول الولي الذي أصبح قلبه عرشاً لله حتى كأنه هو، وهو الذي خدع العوام بقوله سبحانه عن البيت العتيق هذا عندكم بمنزلة عرشي، لأنهم لا يدركون إلا المحسوس الذي أعماهم عن حقيقة القلب الذي وسع الحق، ومن عرف المكر لم يعد ممكوراً به، ومن عرف المرموز ترك الرمز، وعندها لا حج إلا للجهلة والعوام لا غير.

---

[1] - ص٤٨ ج١ بـ١ نفسه
[2] - ص٥٠ ج١ بـ١ نفسه
[3] - ص٥١ نفسه

وما الذي سيقوله ابن عربي في توجه المسلمين بصلواتهم نحو الكعبة، نحو هذا الصنم المعبود بالأرض على حد تعبيره وتعبير رابعة؟ يقول: "ومن قائل لا بد من استقبال القبلة. والذي أقول به بالسجود لأي وجه كان: فأينما تولوا فثم وجه الله-. وهو – سبحانه – بالعين في كل أين"[1]. فإذا كان لا موجود إلا الله أو ما ثمَّ إلا هو، فكيف للعارف بهذا التوحيد تفضيل موجود عن موجود أو مكان عن مكان، فالتحديد من أفدح الأخطاء، وما أعظم حزن ابن عربي وأسفه حيث يقول: لقد "اتفق المسلمون على أن التوجه إلى القبلة أعني الكعبة شرط من شروط صحة الصلاة، ولولا أن الإجماع سبقني في هذه المسألة لم أقل به أنه شرط، فإن قوله تعالى: فأينما تولوا فثم وجه الله، نزلت بعده وهي آية محكمة غير منسوخة، ولكن انعقد الإجماع على هذا، وعلى قوله تعالى فأينما تولوا فثم وجه الله محكماً في الحائر الذي جهل القبلة فيصلي حيث يغلب على ظنه"[2].

فحرية التوجه برأيه ناسخة لحكم الآيات التي حدته بالكعبة، ولكن لغلبة الحجاب أجمعوا على التوجه للكعبة كما أجمعوا حيلة ومكراً على إحكام قوله تعالى "فأينما تولوا فثم وجه الله" لمَّا خصوها بالحائر دون التعميم الذي يقول به أهل الكشف والحقيقة!

---

[1] - ص٥١٧ ج١ بـ٦٩ نفسه
[2] - ص٤٠٤ ج١ بـ٦٩ نفسه

المسلمون برأي ابن عربي يسجدون للكعبة، ولهذا السجود أو لهذه الإهانة سر عظيم "فقال – الله – لهم إن كنتم اعتززتم بسجود الملائكة لأبيكم فقد أمرتكم بالسجود للكعبة، فالكعبة أعز منكم. تسجدون للكعبة الجمادية ومن عصى منكم عن السجود لها التحق بإبليس"[1]. ولكن هل المسلمون يسجدون للكعبة بالفعل؟ إلا أن الصوفي الذي لا يتجه لها تبعاً لهذا الرأي والاتهام، يكون قد التحق بإبليس فعلاً وهذا قوله لا قولنا.

وعندما أُخذ على ابن عربي عدم اتجاهه للقبلة في صلواته، هرع مستشهداً بالرسول ﷺ، فقال: أما علمتم أن النبي "ﷺ كله وجه بلا قفا. وكانت لي هذه. فأرى جميع جهاتي كما أرى قبلتي. ومن كانت هذه حاله فحيث كانت القبلة فهو مواجهها، هكذا ذقته بنفسي"[2]. فأنى توجه شيخنا فإنه يرى القبلة ولو أعطاها ظهره، فكله وجه بلا قفا، وهو الوارث للرسول الذي لم يتوجه إلى الكعبة بظهره عند إقامته للصلاة!! وهل حقاً أن الرسول ﷺ لم يتوجه إلى الكعبة بوجهه؟!

[1] - ص٢٣١ ج٤ بـ٥٥٨ حضرة الإذلال، نفسه
[2] - ص٤٩١ ج١ بـ١٩ نفسه

ـ الذكر أعظم من الصلاة:

الصوفي يفصل بين الصلاة والذكر الذي فيها، فالصلاة برأيه ليست مطلوبة لذاتها، إنها وسيلة الذكر، فالذكر روحها وبه معنى العبادة، وإن كان الصوفي في الذكر فلا صلاة بالجوارح، والرسول ﷺ قد سهى عن الصلاة مرة وما اعتبرها، والكلاباذي يقول: "قالوا في سهو النبي صلى الله عليه وسلم في صلاته "أي المتصوفة": إن الذي شغله عن صلاته كان أعظم من الصلاة لقوله: "وجُعلت قرة عيني في الصلاة" فأخبر أن بالصلاة ما تقر به عينه ولم يقل جُعلت قرة عيني الصلاة"[١]. فقرة عينه ﷺ في الذكر الذي في الصلاة لا في الصلاة التي هي عمل وجوارح، فالذكر باطن العمل، هو روحها، وهو المطلوب للعبادة، ومن وصل إليه فلا ضير في تركه للظاهر، والشيخ عبد القادر الجيلاني يقول: "اذكره حتى يحط عنك أوزارك، تبقى خالياً عن وزر، تصير طاعة بلا معصية"[٢]، وابن عربي يقول: "الذكر ما هو عين الصلاة"[٣]، إنه شيء آخر "ولذكر الله أكبر أحوال الصلاة. والأكابر. هم في صلاتهم دائمون وإن أكلوا وشربوا ونكحوا. فإن المصلي يناجي ربه"[٤]. فمن كان مع المناجاة أو الذكر فهو في صلاة دائمة، مع روح الصلاة أو قرة العين

---

[١] ـ ص٧١ التعرف لمذهب أهل التصوف
[٢] ـ ص٢٥٢ الفتح الرباني
[٣] ـ ص٢٧ ج٣ بـ١٠٦ الفتوحات المكية
[٤] ـ ص٥٤٢ ج١ بـ٦٩ نفسه

"ولذكر الله أكبر. يعني الذي فيها حسب – ابن عربي – أكبر من جميع أفعالها، فإنك إذا ذكرت الله فيها كان – سبحانه – جليسك في تلك العبادة. "وعندها فلا يخلو إما أن تكون ذا بصر إلهي فتشهده، أو تكون غير ذي بصر إلهي فتشهده من طريق الإيمان أنه يراك"[1]. والمهم برأيه أنه لا بد من فصل العبادة عن العمل أو الذكر عن الصلاة أو اللب عن القشر، ويقول أيضاً: "وأقم الصلاة لذكري، هذا أمر بعمل، والعمل ما هو عبادة، فالعمل صورة والعبادة روحها، فالعبادة مقبولة عند الله على كل حال اقترنت بعمل أو لم تقترن"[2].

فالعمل الذي معناه الوضوء وإقامة الصلاة، لا معنى له بالنسبة للعبادة، والعبادة على الإجمال مقبولة عند الله مهما تكن، ولا شرط لاقترانها بالجوارح وهي نفس فكرة الغزالي التي تقول: بالأوجب وقراءة القرآن حسب رأيه كما رأينا من قبل أوجب من إقامة الصلاة!!

العبادة هي الذكر والذكر هو المشاهدة "اعبد الله كأنك تراه. فإنه ﷺ كان يراه في عبادته ما كان كأنه يراه. ومن أهل الله من تكون له هذه الرتبة ولولا حصولها ما قرنها بالعبادة دون العمل. فما قال اعمل لله كأنك تراه فإن العبادة من غير شهود صريح أو تخيل شهود صحيح لا تصح"[3].

[1] - ص٦٥٠ ج١ بـ ٧١ نفسه
[2] - ص١٢٣ ج٣ بـ١٣٣ نفسه
[3] - ص٥٣٩ ج٣ بـ٣٨٨ نفسه

فالعبادة إذن شيء، والصلاة بالجوارح أو بعملها شيء آخر، فالذكر حقيقة العبادة، إنه اللب مقارنة بالقشر الذي يمثل العمل، وما سها الرسول ﷺ عن العمل وهو المعصوم إلا ليعلمنا استبدال الصلاة بالذكر، والمشاهدة قمة الذكر أو العبادة، ومن كان من أهل الشهود فليس له من حاجة للجوارح لإقامة الصلاة، ويقول ابن عربي من جهة أخرى "إن الله هو العامل به لا هو وأنه – أي الإنسان – محل لخلق العمل"[١] فإن شاء الله أجرى حركات الصلاة على جوارح عبده، وإن شاء تركه، فهو تعالى المصلي بجوارح عبده، ولا لوم عندها على الصوفي إن لم يصلِ، وبالجبر لا تكاليف ولا حساب ولا آخرة، واعلم أيضاً "أن العبادة – كما يقول – حال ذاتي للإنسان"[٢]، ولذلك فلا تكاليف لوقت دون آخر، فهو في صلاة دائمة وعبادة مستمرة، شأنه في ذلك شأن الملائكة أو السموات والأرض!

الذكر هو العبادة والعبادة ذكر، وقرة العين عند ابن عجيبة في المشاهدة "إن قرة العين بالشهود"[٣]، فالرسول ﷺ "لا تقر عينه بالصلاة، وإنما تقر عينه بربه، إذ هو صلوات الله وسلامه عليه لا تقر عينه بغير ربه. "ولذلك" رفع همته عن الكونين وخلع نعله من الدارين"[٤]، "ومن

---

[١] - ص٥٤٠ ج٣ بـ٣٨٨ نفسه
[٢] - ص٥٣٩ نفسه
[٣] - ص٢١٢ ج٢ إيقاظ الهمم
[٤] - ص٢١٤ نفسه

كان يعبد الله كأنه يراه فلا يمكن أن يلتفت إلى رؤية ما سواه"[1]، "وقرة عينه ﷺ إنما هي بالله لا بالصلاة"[2]، فالجوارح من الكونين، إنها من جملة ما سواه سبحانه، ومن أراد العبادة على الإحسان، فعليه تركها وترك ما تقوم به من أعمال في الصلاة، لتكون قرة عينه بالله، فعبادة الإحسان عبادة ذِكر لا علاقة لها بالصلاة والعمل "ومن كان مقيماً في محل العبودية- لم يكن فرحه إلا بفضل الله ورحمته. من ذاق ولم يتحقق يكون فرحه بهذا، أي تارة بهذا وتارة بهذا"[3]. أي: من كان على العبودية التي تعني الفرق بين العابد والمعبود، قد يفرح بالصلاة أو بما سوى الله، ولو ذاق وتحقق بالمشاهدة لكان في عبادته على أتم الوجوه، وتلك للواصلين من ورثة الأنبياء والرسول الذي لم تكن قرة عينه بالصلاة، حتى خلع النعلين عن كل ما سواه تعالى، بما فيهما الدنيا بما يعنيه العمل، والآخرة بما تعنيه الجنة والنار!

ومن فكرة ارتباط الذكر بالمشاهدة والعمل بما سوى الله، وانطلاقاً من الحلول والاتحاد قال الحلاج:

"إذا بلغ الصب الكمال من الهوى — *وغاب عن المذكور في سطوة الذكر*
فشاهد حقاً يشهده الهوى — *بأن صلاة العارفين من الكفر"* [4]

---

[1] - ص٢١٥ نفسه
[2] - ص٢١٦ نفسه
[3] - ص٢١٦ – ٢١٧ نفسه
[4] - ص٣٧٣ الصلة بين التصوف والتشيع

أي: من كان له الوصول إلى مشاهدة الجمع مع الله فهو الكافر بمقامه إن أقام الصلاة المشروطة بالفرق بين العابد والمعبود أو الخالق والمخلوق.

ـ التكاليف والتوحيد الصوفي:

توحيد الأفعال في التصوف يقول: لا فاعل إلا الله. فلا حساب إذن وكيف يكون الحساب ولا فاعل إلا هو سبحانه، وكيف يكون التكليف بتوحيد لا موجود إلا الله، أم سيكلف الله نفسه؟! ولهذا وجد ابن عطاء الله السكندري أن التكاليف ذات تناقض بين الفعل والأمر، وبحيرته هذه قال: "إلهي كيف أعزم "على فعل التكاليف" وأنت القاهر "الفعال لما تريد" أم

كيف لا أعزم وأنت الآمر"[1]، "وقيل قام الشبلي يوماً يصلي، فبقي طويلاً ثم صلى، فلما انفتل عن صلاته قال: يا ويلاه إن صليت جحدت، وإن لم أصلِ كفرت"[2]. فالعارف على الحيرة بين أمر الله بالتكاليف والتوحيد المطلوب للحقيقة، وابن عربي هو الآخر حائر في هذه المسألة، وفي ذلك يقول: "التكليف لا يكون إلا لمن له الاقتدار على ما كُلف به من الأفعال، أو مَسْكُ النفس في المنهنيات عن ارتكابها، فمن وجه ننفي الأفعال عن المخلوق "بتوحيد لا فاعل إلا الله"، ونردها إلى المكلِّف والشيء لا يكلِّف نفسه، فلا بد من محل يقبل الخطاب ليصح. ومن وجه نثبت الأفعال للمخلوق بما تطلبه حكمة التكليف، والنفي يقابل الإثبات، فرمانا النظر في الحيرة. والحيرة لا تعطي شيء. فما ثم إلا حائر، وما ثم حاكم إلا الحيرة وما ثمَّ إلا الله"[3].

أي: إن قلت بالتكليف حسب رأيه أنكرت توحيد لا فاعل إلا الله، وهو الشرك عندئذ، ومن المحال أن يكلف الله نفسه بتوحيد لا موجود إلا الله، وإن أنكرت التكاليف أنكرت الشرع أو الحكمة من التكاليف، وإنه لتناقض بين التوحيد والشرك بين الحقيقة والحكمة، ومن هنا كانت الحيرة التي لا زوال لها إلا الاعتقاد بتوحيد ما ثمَّ إلا الله أو لا موجود إلا الله.

---

[1] - ص٢٥١ ج٢ إيقاظ الهمم
[2] - ص١٣٧ التعرف لمذهب أهل التصوف
[3] - ص١٩٧ – ١٩٨ ج٤ بـ٥٥٨ الفتوحات المكية

وابن عربي يتعجب أيضاً من تكفير الشرع لتارك الصلاة قائلاً: "فإن الشرع سماه كافراً بمجرد الترك – ترك الصلاة – وما أدري ما أراد!"[1]، لأن الأمر بالترك يعني الاعتراف بوجود الآخر أو الغير مع الله، وهو شرك، ومحال أن يقول الله بوجود الشريك، "فالتروك وإن كانت عدماً فهي نعوت، فالزم السكوت، الأمر بالشيء نهي عن ضده وهو ترك، وهذا شرك. وما لغيرٍ عين، فقد شهد على نفسه "من قال بالأمر" بإنه جاهل بالكون. لا يترك الأغيار إلا الأغيار"[2].

فلا غير إذن ولا عين للآخر لأنه لا موجود إلا الله، ولا هنالك من أوامر إلهية لها إثبات وجود الغير، وما هي على الحقيقة إلا نعوتاً لا حقيقة لها، ودفعاً للحيرة وبياناً للحقيقة، قال: "إن الله ما كلفهم إلا لما فيهم من الدعوى في نسبة الأفعال إليهم التي نسبوها إلى أنفسهم، ليتجردوا عنها بالله لا بنفوسهم كما فعل أهل الشهود"[3]. فبالتكليف من الله إذن عقوبة الذين أشركوا بزعمهم الاقتدار على الفعل، أو لإنكارهم توحيد لا فاعل إلا الله، ولو كان لهم هذا التوحيد ما وقع عليهم عذاب التكليف! ويقول: "فإن كان العمل له – سبحانه – فأين العبد وإن كان للعبد فقد أشرك نفسه. فعلى كل حال لا بد منك ومنه"[4] في الأمر التكليفي المبني على الفرق،

---

[1] - ص٥٥٩ ج١ بـ٧٠ نفسه
[2] - ص٣٦١ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه
[3] - ص١٣٣ ج٤ بـ٤٩٧ نفسه
[4] - ص١١ ج٤ بـ٤٠٧ نفسه

وعندها لا بد من اقتران التكاليف بالشرك، وبناء عليه أيضاً، فلا صيام على سبيل المثال لمن آمن بتوحيد لا فاعل إلا الله، "فمن كان مشهده أن لا قدرة له كأمثالنا انتفى عنه الحكم بالصوم"[1]. يقصد انتفاء بالعقيدة لا انتفاء بالعجز.

ومن اتخذ الأسباب فقد أشرك، والمقيم بالتكاليف وهو المؤمن بأنها السبب لدخول الجنة أو النجاة من النار فهو أيضاً مشرك، ولقد قال تعالى "وما يؤمن أكثرهم إلا وهم مشركون. يعني هذا الشرك الخفي الذي هو الاعتماد على الأسباب"[2].

فمن أقام التكاليف إذن ومن آمن بالجنة والنار وربطهما بالعلل أو التكاليف، فقد أشرك، وأكثر المؤمنون كما يقول الله حسب تأويل ابن عربي مشركون ولا نجاة إلا لأهل العيان أصحاب التوحيد.

العبادات أو التكاليف شهوات نفس، فمن عبده على شهوة الجنة فقد أشرك، "ولو كنت صادقاً – كما يقول النابلسي – ما التفتت إلى شهوة ولا عبادة ولا مقام ولا مكاشفة، ولأفردت القصد إليه تعالى وحده دون ما عداه"[3] من جنة ونار وزعم أفعال. "فليست طريقتنا – في العبادة – عملاً، لأن العمل عامل ومعمول له وهي ثلاثة: عمل وعامل ومعمول له، فقد

---

[1] - ص٦١٧ ج١ بـ٧١ نفسه
[2] - ص١٨٣ ج٢ الكبريت الأحمر
[3] - ص٩٠ شروح رسالة الشيخ أرسلان

فات التوحيد مع التثليث"[1]، فمقيم الصلوات أو التكاليف حسب رأيه مشرك وتوحيده هو نفسه توحيد النصارى، "إنه يعتقد ثلاثة أشياء موجودة على السواء. فالله تعالى عنده واحد من هذه الثلاثة. قال تعالى: "لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة"[2]، "فالعبادة – كما يقول ابن عربي – تناقض التوحيد فإنها تطلب عابداً ومعبوداً"[3]، وإن اطلعك الله – كما يقول عبد القادر الجيلاني – على لب اللب وسر السر ومعنى المعنى، فحينئذ تتعرى عما سواه في الجملة: التعري للقلب لا للجسد. النظر إلى المعاني لا للمباني"[4]. أي: دعك من التكاليف، دعك من شرك العمل، دعك من الشهوات ومن كل ما سوى الله، واعلم بأن القلب هو الأساس وليس في عبادته من عمل أو شرك.

- التكاليف وتوحيد لا موجود إلا الله:

لا موجود إلا الله، إنها كل الغاية من التوحيد الصوفي. وعندها كما يقول ابن عربي: "فمن يكون مكلفاً بالعبادة، وما ثم إلا الله؟"[5]، فإن قال الحق: أقيموا الصلاة "فهو الآمر والمكلَّف والمأمور"[6]، وإذا كان التكليف

---

[1] - ص١٥٨ نفسه
[2] - ص١٠٨ نفسه
[3] - ص٤٨٩ ج١ بـ٦٩ الفتوحات المكية
[4] - ص١٩٣ الفتح الرباني
[5] - ص٤٧٨ ج١ بـ٦٨ الفتوحات المكية
[6] - ص١٤٧ ج١ فصوص الحكم

معناه إحداث العمل وإيجاد الدراية فهذا ليس إلا تعارضاً مع توحيد لا فاعل إلا الله.

"وكلف والتكليف يطلب حادثاً ويطلب من يدري وما ثم إلا هو" [1]

وبالإجمال "فتكليفه إيانا تكليف له، فبنا تكلف للتكليف، فما كلفنا سوانا، ولكن به لا بنا"[2]، "وتحقيق الأمر يعطي أن الآمر عين المأمور، والمحب عين المحبوب"[3].

"الرب حق والعبد حق يا ليت شعري من المكلف
لقد قلت عبد فذاك ميت أو قلت رب أنَّى يكلف " [4]

والشيخ عبد الكريم الجيلاني، يقول بمعرض حديثه عن فاتحة الكتاب: "فاستفتح – سبحانه – فاتحة الوجود وتحقق العابد أنه عين المعبود"[5]، "وقال تعالى: إياك نعبد، يخاطب نفسه يعني هو العابد نفسه بمظاهر المخلوقات إذ هو الفاعل بهم ومحركهم ومسكنهم، فعبادتهم له

---

[1] - ص٤١ ج٤ بـ٤٢٩ الفتوحات المكية
[2] - ص٦٦ ج٤ بـ٤٥١ نفسه
[3] - ص٣٥٣ ج٢ بـ١٧٨ نفسه
[4] - ص١٧٢ مواقع النجوم، ص٥٥٢ ج١ بـ٧٠ الفتوحات المكية، ص٢ ج١ الفتوحات المكية.
[5] - ص٧٧ الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر

عبادته لنفسه"[1]، وابن عربي لا يفوته استغلال حديث "كنت يده" برهاناً على عبادة الله لنفسه، قائلاً: "هو – سبحانه – عين كل شيء. كما أنه عين العابد من كل عابد بقوله أيضاً كنت سمعه حيث خاطبه بالتكليف. فلم يظهر في العابد والمعبود إلا هويته"[2]. وبناء عليه قال: "العبادة لا تصح من غير شهود، وإن صح العمل"[3]، ومن كان على الشهود فلا تكاليف على جوارحه فما للعمل قيمة مع العبادة، لأن العبادة "ذاتية للمخلوق لا يحتاج فيها إلى تكليف"[4]، طالما كل أفعاله عبادة وطالما كل عبادة على صواب.

فعندما كلف الله الإنسان كان الله سمعه، فقد كان التكليف لنفسه، فهو الآمر والمأمور، فالصلاة مثلاً عمل، والعمل فيها مقسم على ثمانية أعضاء من الإنسان. وقد أخبر الحق أنه تعالى هوية كل عضو منه. فلم يكن العامل غير الحق، والصورة للعبد"[5]. وبذلك تكون عبادة الله لنفسه عبر عبده الذي استخدمه لهذه الغاية.

الرب حق والعبد حق، "والشيء لا يعبد نفسه، وإذا تحقق عارف مثل هذا، وتبين أنه ما ثمَّ إلا الله خاف من الزلل. بإسقاط العمل نعوذ بالله

---

[1] - ص٧٨ نفسه
[2] - ص١٠٢ ج٤ بـ٤٧٠ الفتوحات المكية
[3] - ص١١٨ – ١١٩ نفسه
[4] - ص١٠١ نفسه
[5] - ص١٥١ – ١٥٢ ج١ نفسه

من الخذلان. فنظر العارف عند ذلك إلى الأسماء الإلهية وتوقف أحكام بعضها على بعض وتفاضلها في التعلقات. فيوجب العبادات من ذلك الباب وبذلك النظر. وهو أقصى ما يمكن الوصول إليه في باب إثبات التكاليف في عين التوحيد، حتى يكون الآمر المأمور، والمتكلم السامع"[1]. وبذلك تصبح التكاليف تكاليف أسماء إلهية لأسماء إلهية عبر التنازع الدائم فيما بينهم، وبهذا المعنى يكون ارتباطها بالتوحيد، توحيد الواحد الكثير، طالما أن الله مجموع الكل أو مجموع أسمائه، وتلك هي الوسيلة القصوى التي يمكن للعارف استخدامها لربط التكاليف بالتوحيد أو لعبادة الله لنفسه.

والشيخ عبد الكريم الجيلاني يقول: التكاليف "إنما هي لإعطاء أسمائه وأوصافه حقها. فما عبد – سبحانه – إلا نفسه"[2]، فهو سبحانه – كما يقول ابن عربي – يطيع نفسه إذا شاء بخلقه. فبالتكليف ظهر الاسم المعبود"[3]، "وإن خاطب عبده فهو المسمع السميع، وإن فعل ما أمر بفعله، فهو المطاع المطيع"[4].

وتلك هي عقيدة أهل الباطن أو باطن التكاليف بإزاء أهل الظاهر، إذ الأعمال لها درجات: ظاهرة وباطنة، فالظاهرة لأصحاب الرسوم وهم

[1] - ص٥٥٢ ــ ٥٥٣ ج١ بـ٧٠ نفسه
[2] - ص٧٨ ج١ بـ٤ الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر
[3] - ص٢ ج١ الفتوحات المكية
[4] - نفسه

أهل الجنان، والباطنة لأصحاب الهمم وهم أهل الرحمن"[1]. فأهل الرسوم أهل ما سوى الله غايتهم الجنة أو ما سوى الله، أما أهل الهمم الذين أفردوا القصد إلى الله فهم الذين عزلوا العبادة عن العمل أو الجزاء والحساب، وصوبوا كل عقيدة على الإطلاق.

التكاليف في الإسلام تعني الفرق، الفرق بين العابد والمعبود، بين الآمر والمأمور، ولا فصل بين العبادة والعمل، أما الصوفي الذي لم يعد يرى من فرق بينه وبين الله، فقد زعم عبادة الله لنفسه، وزعم عبادة التأمل بالباطن أو القلب لا بالجوارح والعمل، وبهذا يكون الفرق بين الفريقين هو نفسه الفرق بين إله وإله.

- التكاليف والفناء:

الفناء في التصوف أصل رئيسي في مراتب الطريق، ولا بد منه في نقاش كل مسألة من مسائلهم، فكما هي علاقته بالفضائل والوجد كذلك له كل العلاقة مع التكاليف، بل إن نظرتهم للتكاليف تابعة لفكرتهم عن الفناء.

القول بالفناء من سمات الظاهرة الصوفية، أينما وُجدت تلك الظاهرة، ويقال أن: أول من قال بالفناء أتباع براهما بالهند، ويسمونه "النيرفانا" ثم جددت الفلسفة الأفلاطونية القول بهذا الرأي- وعرف

---

[1] - ص١٧٣ مواقع النجوم

عندهم "بالاتحاد""[1]، ولقد اجتهد بعضهم للتمييز بين فناء النيرفانا والفناء الصوفي، فقال: إن الفناء عند متصوفة الإسلام ليس "محواً تاماً للشخصية الإنسانية – كما هو في النيرفانا – بل هو محو يعقبه صحو، وفناء يعقبه بقاء"[2]. ولكن المتأمل في هذا القول لا يرى فيه أي تمييز بينهما، ولو لم يصطدم المتصوفة أصلاً بقضية التكاليف التي تطلب الوعي والفرق، لما قالوا بالرجعة من يقين الجمع بعد الفناء فيه، إلى الفرق الذي هو بزعمهم شرك وجهل.

ويحكى أيضاً أن أبا يزيد البسطامي "كان أول من أدخل مذهب "الفناء الهندي" في التصوف، ولما جاء الجنيد ووجد الناس يحاربون فكرته أخذ يفلسف الفناء "من أجل التقية"- فسماه الميثاق- ثم قامت على فكرة الفناء والميثاق- الاتحاد، والحلول، وعين الجمع، ووحدة الوجود"[3].

أبو يزيد البسطامي هذا الصوفي الفارسي الأصل حسب البعض، هو أول من استعمل كلمة الفناء بمعناها الصوفي الدقيق، أي بمعنى محو النفس الإنسانية وآثارها وصفاتها. أما جامي "في نفحات الأنس" فقد رأى أن أبا سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٨٦ هـ كان أول من تكلم في

---

[1] - ص٨٨ الصوفية في نظر الإسلام
[2] - ص – ق في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص١٨٦ في تراثنا العربي الإسلامي. عالم المعرفة.
[3] - ص١١٢ الصوفية في نظر الإسلام، ص٦٥ – ٦٦ التصوف في الإسلام

الفناء"[1]، والسلمي في طبقاته أيضاً نسب الفناء إلى أبي سعيد هذا قائلاً: "قيل أنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء"[2]. أما الفناء كوجود فهو قديم جداً، ومذ كان التعاون بين الكائنات الأخرى والساحر والشامان أو العراف والعارف مشروطاً بوجود الفناء الذي لولاه ما كان التعاون بينهما.

الفناء قمة السفر وعتبة التماس مع الكائنات الأخرى، وبه أو بالجمع توزن الأمور، ومنه يؤخذ معيار اليقين الصوفي، وابن القيم الجوزية يقول عن الهروي موضحاً أهمية الفناء عند القوم: أنه ممن "لا تأخذه في الفناء لومة لائم"[3]، والمتصوفة أنفسهم جعلوه الحد الفاصل بينهم وبين العوام، فالعوام أو العامة عندهم: هم مَن عدا باب الجمع والفناء وإن كانوا أهل سلوك وإرادة وعلم- ويسمونهم "أهل الفَرق"- أو المحجوبين"[4].

وما الذي يقوله يقين فنائهم عن التكاليف؟ لا تكاليف مع الفناء عند ابن عربي، "فالذائق لهذه الحقيقة يذهب رسمه ويزول تكليفه وتفنى ذاته"[5]. فالأولياء على حد تعبيره ساهون عن التكاليف وهم في حظيرة

[1] - ص٢٢ – ٢٣ في التصوف الإسلامي وتاريخه
[2] - ص٢١٥ دراسات في التصوف الإسلامي
[3] - ص٤٣٧ ج٢ مدارج السالكين
[4] - ص٢٥٧ ج١ نفسه
[5] - ص٣٨ مواقع النجوم

الحق، "فمنهم الساهون وهم الذين هم عن صلاتهم ساهون، بصلاة الله بهم، فهم يرون أن نواصيهم بيد الله يقيمهم فيها ويركع بهم ويسجد بهم ويقرأ بهم ويكبر بهم- ومن كان هذا مشهده وحاله فهو عن صلاته ساه- والويل الذي لهم إنما هو بالنظر لمن جمع في نظره بين صلاته وصلاة الله به"[1]. أي إن زعم الإرادة لنفسه، والويل لمن جعل الصلاة مشروطة بالجوارح والعمل، والسهو من مقامات الصوفي الرفيعة التي بها إسقاط العمل، فالله هو المصلي والقارئ والفاعل بجوارح عبده، والعارف "إذا وصل إليه – تعالى – سقطت عنه الأعمال المشروعة، وأنه غير مخاطب بها مع وجود عقل التكليف عنده"[2]، وتارك التكاليف يصل إلى الذات الإلهية، ومن كان له هذا الوصول فلا تكاليف عليه ولو كان مالكاً لشروط إقامتها، لأنه سيصبح كالملائكة المهيمين "فهذا يكون حاله الاستهلاك – في الحضرة والفناء – كالملائكة المهيمين"[3]، ومن الأولياء من له مشاهدات في عالم الخيال "فيخاطب ويخاطَب، ولا يزال في صور دائمة في لذة ونكاح إن جاءته شهوة جماع، ولا تكليف عليه ما دام في تلك الحال لغيبته عن إحساسه في الشاهد- ولكن كثيرون منهم كذب والصادقون نعرفهم بعلامة"، فإذا رأينا تلك العلامة عرفنا صدق

[1] - ص١٣٦ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية
[2] - ص٢٥١ ج١ بـ٤٥ نفسه
[3] - ص٢٥٢ نفسه

صاحبها"[1]. فالذين لهم مشاهدات في عالم الخيال لا تكليف عليهم، والزاعمون كذباً لهذا المقام لا يعرفهم إلا ابن عربي، وكُثُر هم المتصوفة الذين تحللوا من التكاليف بهذه المزاعم المكذوبة!

الصوفي على التلوين ولا إقامة للتكاليف لمن هذه حاله، والشيخ داود الكبير يقول: "العارف يتلون في اليوم والليلة مائة مرة، والعابد يقيم على حالة واحدة كذا وكذا سنة، وذلك لأن العارف مائل إلى دائرة التصرف، والعبد مائل إلى دائرة التكليف"[2]. فالله هو المتصرف في العارف ولا إثم عليه في تركه التكاليف، فإنه تعالى هو الفعال بعبده ما يريد، أما العابد من العوام صاحب الفرق، فقائم أبداً في دائرة التكليف البعيدة عن التوحيد.

وعند حديث ابن عربي عن منزل ترادف الأحوال، يقول: أن "فيه إباحة التشريع بالأمر والنهي في نفسه لا في غيره"[3]. فلصاحب هذا المقام إذن حرية الأخذ بالأوامر والنواهي التي لها التمييز بين الحلال والحرام دون مؤاخذة ولكن ليس له أن يأمر غيره بما هو له!

وإن كان الصوفي في ضيافة ربه أو في حضرته أو وهو المسافر بين المقامات على الدوام، فهل له الصيام عندها؟ لا "إن الصوفية أضياف

---

[1] - ص٢٧٤ ج١ بـ٥١ نفسه
[2] - ص٢٠١ ج١ الطبقات الكبرى
[3] - ص٢٢ ج٣ بـ٣٠٥ الفتوحات المكية

الله فإنهم سافروا من حضوض أنفسهم وجميع الأكوان إيثاراً للجناب الإلهي فنزلوا به- فضيافته بحسب أيامه- ثلاثة آلاف سنة"[1]. فالصوفي إما مسافر ولا صيام عليه، وإما في ضيافة الكريم وبالوصول بعد السفر يكون الفطر ولا صيام بعدها!

ليس في الفناء من طاعة أو معصية، وكيف ذلك إن كان العبد فانياً في الله حيث لا فرق عندها بينهما "فإذا تحقق الفناء في الذات والبقاء بالله، فلا نقص للنفس ولا كمال، وإنما الكمال للكبير المتعال فله الحمد والثناء على كل حال"[2]. أي: إذا وصل الصوفي لمقام الإتحاد بذات الله وانمحى الفرق بينهما، عندها لا مكان للأحكام ولا فاعل عندها إلا الله.

ليس من طاعة ومعصية، فكل أفعال الصوفي معصومة عن الخطأ، حتى إن ارتكب المعاصي، لأن الله هو المتصرف فيه على الحقيقة لا هو، "فالفناء – كما يقول الكلاباذي – هو أن يفني عنه الحظوظ- ويسقط عنه التمييز- والحق يتولى تصريفه، فيصرفه في وظائفه وموافقاته- وهو العصمة وذلك معنى قوله "كنت له سمعاً وبصراً""[3]، "على معنى: أن لا يجري عليه إلا ما أمر به وما يرضاه الله تعالى- وهذا معنى قولهم: يكون

[1] - ص٦٥٥ ج١ بـ٧١ نفسه
[2] - ص١٥٩ ج٢ إيقاظ الهمم
[3] - ص١٢٣ التعرف لمذهب أهل التصوف

فانياً عن أوصافه باقياً بأوصاف الحق"[1]. ففي الفناء سقوط التمييز أو الفرق، فلا طاعة ولا معصية حيث لا فعل للصوفي عندها إلا بأمر إلهي "والقطب سيدي محمد بن وفا، يقول:

"وبعد الفنا في الله كن كيفا فعلمك لا جهل وفعلك لا وزر"[2]

فمن وصل إلى الفناء في الله، فهو المعصوم بفعله وعلمه، وإن عصا أو أخطأ.

ليس في الجنة من تكاليف وليس لأحكام الشرع حكم على ما فيها من لذات أحلت لأصحابها، والصوفي في دنياه له الوصول لمقام الجنة بما لها من أحكام مختلفة عن أحكام الدنيا، وبما فيها من لذات، وعن هذا المقام يقول الغزالي: "وقد تُعجَّل هذه اللذات في الدنيا. ولكن إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية، رماه الخلق بالحجارة، فيرون ما يقوله جنوناً أو كفراً"[3]، والواصل لحضرة الربوبية كما يقول من حقه أن يقول: "**ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله**. فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة بعينها"[4]. وبمقام الجنة الذي كان له، وبما تعنيه من نهاية الابتلاء والتكليف، كل ذلك قد أصبح له وهو في دنياه! والشيخ عبد القادر

---

[1] - ص١٢٤ نفسه
[2] - ص٢٨٣ قلادة الجواهر
[3] - ص٣١١ ج٤ إحياء علوم الدين
[4] - ص١٥ ج٣ نفسه

الجيلاني، يقول: "من يخرجه – تعالى – من العمل في دنياه ويمن عليه ويرحمه ويعجل له الراحة قبل مجيء الآخرة يقتصر منه بأداء الفرائض ويريحه من النوافل"[1].

فالراحة من الفرائض أو النوافل على الأقل قد تكون للصوفي كمقام له في سفره، وليس عبثاً أن هاجم الملطي المتصوفة لزعمهم "أن أرواحهم تنظر إلى ملكوت السموات وبها يعاينون الجنان، ويجامعون الحور العين، وتسرح في الجنة، ويزعم هؤلاء كما يقول أن حب الله متى غلب على قلوبهم فإنه يجعل لهم السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها حلالاً"[2]. ولكن ليس هذا إلا للكبراء من الأولياء الواصلين لا لغيرهم.

الفناء والتكاليف كما رأينا لا يجتمعان، ومن كان له ثبوت بمقام الفناء فتلك الوقفة أفضل ألف مرة من وقفة الحاج في عرفات، والنابلسي يقول على لسان ابن الفارض: إن العارف إذا تحقق بفناء نفسه واضمحلال رسومه وبوجود ربه وثبوت أسمائه وصفاته فتلك الوقفة المذكورة تساوي عنده تمام الحج والوقوف بعرفات"[3]، أما ابن عجيبة على لسان ابن عطاء فيتمنى الفناء ليتخلص من أعباء التكاليف، قائلاً: "فليته أفناني عني، أي: عن رؤية وجودي، فمتعني بشهوده أو غيَّبني عن

[1] - ص١٩٨ الفتح الرباني
[2] - ص١١ العقلية الصوفية ونفسانية التصوف
[3] - ص٤٤ الصوفية في شعر ابن الفارض

حسي، فيروِّحني – أي يريحني – من الحقوق – أو الفرائض – التي تفرقني عنه بإسقاطها عني في حالة الغيبة"[1]! والله أعلم عندها إن كان الصوفي يزعم الفناء للتخلص من التكاليف أم أنه بالفعل واقع تحت مؤثرات لا يملك معها شيئاً من الوعي، إلا أن سعيه لتحصيل الفناء أو اللاوعي الذي فيه إسقاط التكاليف مؤاخذ عليه، لأن الفناء عندها كالمسكر الذي قال الله فيه "ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون".

لا تكاليف مع الواردات، "فمتى وردت الواردات الإلهية إليك – كما يقول ابن عطاء – هدمتْ العوائد عليك. إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها"[2]، "بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق-. "فثمرة الوارد هدم العوائد واكتساب الفوائد"[3].

ومقام "المحو" الذي معناه رفع أوصاف العادة هو الآخر من المصطلحات الصوفية التي لا تكاليف معها، ومن كان له أو "ما دام بهذا الوصف فلا تشريف ولا تكليف عليه، اللهم إلا أن يُرد"[4]. وهيهات أن يُرد!!

---

[1] - ص١٢٧ ج١ إيقاظ الهمم
[2] - ص١٢٣ ج٢ نفسه
[3] - ص١٢٧ نفسه
[4] - ص٤٢ الرسالة القشيرية

التكاليف في أدنى الدرجات، والفناء المؤدي إلى الكشف والواردات هو الهدف، إنه الحقيقة التي عناها الله عز وجل بقوله: "واعبد ربك حتى يأتيك اليقين"، والشعراني يقول مفسراً: "وأما اليقين فهو من يقن الماء في الحوض إذا استقر، وذلك إشارة إلى حصول السكون والاستقرار والاطمئنان، بزوال التردد والشكوك والوهم والظنون"[١]. أي: فاعبد ربك بالتكاليف حتى يكون لك زوال التردد والشكوك وهو معنى اليقين عنده، أما إذا اعتبرنا اليقين هو الموت، فعندها لا إسقاط للتكاليف ما دام الإنسان حياً، والمتصوفة ساووا بين الموت والفناء اعتماداً على حديث يقولون فيه: "موتوا قبل أن تموتوا"، وإن وصل الصوفي لهذا المقام، أو إن مات وهو حي، سقطت عنه التكاليف، والشيخ النابلسي يقول: ""واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" يعني إذا جاءك اليقين فلست بعابد حينئذ"[٢]. فالموت هو اليقين هو الفناء المؤدي إلى الكشف، "وفي الفناء لا عابد ولا معبود، ومحمد ﷺ على ذمته "اليقين أتاه، فانتهت عبادته المأمور بها ﷺ، وانتقل إلى الشكر"[٣]، وابن عربي يقول: "اعبد ربك حتي يأتيك اليقين" يعني الموت لأنه أمر متيقن لا اختلاف في وقوعه"[٤]، هذا عند العامة، يقول: "وأما نحن فاليقين عندنا موجود في كل أحد من خلق الله، وإنما يقع الخلاف

---

[١] - ص١١ ج١ الطبقات الكبرى
[٢] - ص١٥٨ شروح رسالة الشيخ أرسلان
[٣] - ص١٠٩ نفسه
[٤] - ص٢٩٥ ج٢ بـ١٧٦ الفتوحات المكية

بماذا يتعلق، فاليقين صفة شمول وليست من خصوص طريق الله"[1]. أي: كل من مات فله يقين المشاهدة والكشف، سواء بالموت العادي أو بمعنى الفناء، ولا تحديد لتحصيله بفئة عن فئة، فمن اتخذ أسبابه وصل إليه، ومن كان له الكشف أو يقين لا فاعل إلا الله، زال عنه التكليف "فإذا جاء الأجل المسمى وفك العمى وأبصر الأعمى جاء التعريف وزال التكليف"[2].

- الصوفي والرد من الفناء لإقامة التكاليف:

ابن عربي يرى أن "من يخرج من الفناء أفضل ممن لا يخرج منه- . حيث قال: ومنهم المردود وهو أكمل من الواقف المستهلك، بشرط أن يتماثلا في المقام"[3]، ففي الفناء على حد تعبير الشعراني "لا تمييز ولا إخلاص ولا صدق وهذا جمع الجمع وعين الوجود وهذا هو الوصول الذي يرد على أحوال التمييز والتكليف فيحجب عن هذا الوصف بنوع ستر ليفوز بحق الشرع، والمغاليط هاهنا كثيرة، والمحفوظ من رجع إلى أداء أحكام الشريعة"[4]. ففي فناء الوجود لا تمييز يوجب التكليف، وصاحب هذا المقام مضطر ولو على حساب مقامه، التظاهر بالتكاليف

---

[1] - ص٢٠٦ ج٢ بـ١٢٣ نفسه
[2] - ص٣٨٦ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه
[3] - ص٢٢٧ ابن عربي حياته ومذهبه
[4] - ص١٤٦ ج١ الطبقات الكبرى

ليفوز بحق الشرع، والمحفوظ من رجع إلى أداء التكاليف والتزام أحكام الشريعة دون نكرانها "وقد رووا أن أبا يزيد البسطامي والشبلي وغيرهما من كبار الأولياء، كانوا في حالة الجذب دائماً إلى حين وقت الصلاة، وهنا يصحون من سكرهم، فإذا انتهوا من صلاتهم عادوا إلى حالة الوجد"[١]، وهو معنى قول بعضهم بالعصمة أو الحفظ.

والشيخ ابراهيم الدسوقي "كان رضي الله عنه يقول: فمن غاب بقلبه في حضرة ربه لا يكلف في غيبته، فإذا خرج إلى عالم الشهادة قضى ما فاته وهذا حال المبتدئين أما حال الكمل فلا يجري عليهم هذا الحكم، بل يردون لأداء فرضهم وسننهم"[٢]، فصاحب الفناء كما يقول ابن عربي: "يكون الحق متوليه في تلك الغيبة- وقد أقمت أنا في هذه الحالة مدة ولم أخلَّ بشيء من حركات الصلاة الظاهرة بالجماعة على أتم ما يمكن إماماً، ولا علم لي بشيء من هذا كله- وحكي عن الشبلي أنه كان يأخذه الوله ويرد في أوقات الصلوات فإذا فرغ من الصلاة أخذه الوله"[٣] تارة أخرى. والشيخ عبد القادر الجيلاني يقول: "فإذا جاء وقت عمل أبدانهم دون

[١] - ص١٠٢ في التصوف الإسلامي وتاريخه
[٢] - ص١٦٦ ج١ الطبقات الكبرى
[٣] - ص٤٧٩ ج١ بـ٦٩ الفتوحات المكية

قلوبهم، مضوا مع الحرس في تلك الأعمال. ثم يردون بعد أداء تلك الأوامر وفراغ تلك الأعمال إلى مراتبهم"[1].

الصوفي كما يقولون يرد من فناءه لإقامة التكاليف، وربما أن أقوالهم هذه لا تتعدى التقية وإرضاء العوام الذين لا علم لهم بمبادئ وأصول الظاهرة الصوفية، فالشبلي الذي قالوا أنه من المحفوظين مثلاً أو المردودين إلى التكاليف "قام يوماً يصلي فبقي طويلاً ثم صلى، فلما انفتل عن صلاته قال: يا ويلاه إن صليت جحدته، وإن لم أصل كفرت. ثم أنشد:

"الحمد لله على أنني … كضفدع يسكن في اليم
إن هي فاهت ملأت فمها … أو سكنت ماتت من الغم"[2]

ولكن كيف لنا إذا كانت هذه حال المحفوظ أو المردود إلى التكاليف أن نعتمد "الرد" حجة لإقامة الصوفي للتكاليف رغم كل ما قاله وأعلنه وهو على الوعي؟

الأكابر من الأولياء في حضرة الجمع على الدوام، فالفناء طويل وقد يدوم طويلاً، ولا تكاليف في حضرة الجمع "ففي وجه من تهوى

[1] - ص١٦١ ج٢ الغنية
[2] - ص٣٩٨ – ٣٩٩ دراسات في التصوف الإسلامي

الفرائض والنفل؟"[1]، وقصة الرد إلى التكاليف لا يتجاوز معناها الحيلة والتقية، وابن عربي نفسه يقول صراحة: "وأما العالي من الرجال – أو كبار الأولياء- يحتالون في ستر مقامهم عن أعين الناس- فيجمعون بين الدعوة إلى الله وبين ستر مقامهم"[2]. فهم إذن يتخذون التكاليف ليستروا أحوالهم عن اعين الناس! حفاظاً على دمائهم ولكن كأصل لا هجرة بعد الفتح، بل سياحة عن أمر إلهي لا رداً للتكاليف، حيث "قال ﷺ: لا هجرة بعد الفتح "أو الكشف"- فإن هاجر فعن أمره – تعالى – مثل خروجه إلى أداء الصلاة في مسجد الجماعة، ومثل خروجه إلى مكة يريد الحج، وكخروجه أيضاً إلى الجهاد وإلى الزيارات- فهذا كله – كما يقول ابن عربي – ليس بهجرة على الحقيقة وإنما هي سياحة عن أمر إلهي"[3].
وأحدهم يقول:

"مذ عرفت الإله لم أرَ غيراً ... وكذا الغير عندنا ممنوع
مذ تجمعت ما خشيت افتراقاً ... فأنا اليوم واصل مجموع"[4]

فالواصل لا يعرف الفرق بعد الوصول أو الجمع، وهذا قانون عام وشامل عند القوم.

---

[1] - ص١٣٤ ج٢ إيقاظ الهمم
[2] - ص٢٥٢ ج١ بـ٤٥ الفتوحات المكية
[3] - ص٢٤٧ ج٣ بـ٣٥٥ نفسه
[4] - ص٢٦٠ التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس

إن إيمان الصوفي بتوحيد الأفعال حيث انتفاء الطاعة والمعصية، وتوحيد الوجود الذي لا فرق فيه بين العابد والمعبود، لا معنى لهذا كله حقيقة إلا عقلنة الجمع أو الفناء وبالنتائج العملية لهذا التوحيد كل المعنى على انتقال الفناء من اللاوعي إلى الاعتقاد أو الوعي، ولا مكان عندها لشيء اسمه الرد إلا على معنى الكفر أو الإنكار للوصول، وأخيراً نقول: إن صاحب الفناء إن كان على الغلبة والقهر فهو معذور حتماً في عدم قيامه بالتكاليف، وهو بحكم فاقد الوعي أو المجنون الذي رُفع عنه القلم، أما أن يسعى الصوفي لتحصيل الفناء فهو مؤاخذ طبعاً، مؤاخذة السكران بتناول الخمر، هذا إن صح إنكاره لتوحيده وهو على الوعي.

- الحب والتكاليف:

يروي الغزالي أن يحيى بن معاذ قال: "مثقال خردلة من الحب أحب إليه من عبادة سبعين سنة بلا حب"[1]، ولغاية في نفس الصوفي كان التمييز بين العابد والمحب، حتى أصبح لكل منهما شأنه الخاص به، وأصبح هناك كما يقول ابن عجيبة "قوم أقامهم – الحق – لخدمته، وقوم أختصهم بمحبته"[2]. وأنه لفرق عظيم بين العابد المقيم للتكاليف والمحب،

[1] - ص٢٩٦ ج٤ إحياء علوم الدين
[2] - ص١٧٩ ج٢ الفتح الإلهي

فأهل المحبة قائمون على الاختصاص أو الاصطفاء، "فالحب – عند السهروردي – حبان: حب عام وحب خاص"[١]، "وأما الحب الخاص- هو الاصطفاء من الله الكريم لعبده واصطفاؤه إياه – وهذا الحب يكون من الأحوال، لأنه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل"[٢]. وهل يصطفي الله من لا طاعة له؟ نعم، وإلا لما كان لتوحيد لا معبود إلا الله أي معنى! ولهذا فلا جواب إلا نعم!

ليس للأعمال أو الطاعات من علاقة مع الحب الذي بين الله والصوفي، والنابلسي يقول في انفصال المحبة عن العمل أو التكاليف: "وأهل المحبة دائماً مقبلون على ربهم- فلا يتصور لهم عمل أبداً على كل حال، فليس العمل في طريقتهم، بل هو في طريقة الغافلين المحجوبين عن الله تعالى"[٣] بعباداتهم، "فالمحبة ليست كالعبادة التي يلزم الاشتغال بها الإعراض عن المعبود"[٤]، فإقامة التكاليف برأيه حجاب وإعراض عن الله، ولا جمع بين أداء التكاليف والمحبة، وكيف يكون العابد محباً لله وقد اتجه بقلبه إلى ما سواه، إلى الجنة؟ وابن عربي "يقول: بأن الولي ليس عليه تكليف- لأن المحب غير مطالب بالقيام بالآداب- إنما يطالب

[١] - ص٢٣٩ بـ٦١ عوارف المعارف
[٢] - ص٢٤٠ بـ٦١ نفسه
[٣] - ص١٥٩ شروح رسالة الشيخ أرسلان
[٤] - ص١٥٩ نفسه

بالأدب من كان له عقل"[1] يعي الفرق. والمحبون هؤلاء كما يقول فخر الدين الرازي "هم قوم يحفظون طاعات لا أصل لها ويدعون محبة الله- ويخالفون الشريعة، ويقولون: إن الحبيب رفع عنا التكليف، وهم على الحقيقة على دين مزدك"[2] المجوسي.

ليس على المحب من ذنب، وقد استنطق المتصوفة حديثاً نسبوه للرسول ﷺ، يقولون فيه كما يروي القشيري: "إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب"[3]، فمن كان محبوباً فقد أصبح في مقام افعل ما شئت فقد غفرت لك، وابن عجيبة يقول: "فقد يبلغ الولي إلى مقام في الوصول يقال له: افعل ما شئت فقد غفرت لك- فيكون فعله كله بالله، وفي "قوت القلوب للمكي"- أنه إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب- وفي كتاب القصد للشاذلي يبلغ الولي مبلغاً يقال له: أصحبناك السلامة وأسقطنا عنك الملامة افعل ما شئت- فإذا انهدمت البشرية وتخلصت الروحانية إلى مولاها سقط حينئذ التكليف"[4]. ففي حال فناء البشرية فلا تكاليف، وما مكان الفاني عندها إلا في الجنة، وفي الجنة لا تكاليف!

---

[1] - ص٤٨٩ – ٤٩٠ الروحية عند محيي الدين ابن عربي
[2] - ص٣٠ دراسات في التصوف الإسلامي
[3] - ص٤٥ الرسالة القشيرية
[4] - ص٢٣٩ ج٢ الفتح الإلهي

أما ابن عربي فبالشفاعة المطلقة التي نسبها للرسول ﷺ رأى وصول الصوفي إلى مقام افعل ما شئت الذي لا ذنب معه "فإن فهمت – كما يقول – ما أومأنا إليه فافعل ما شئت فقد غفر لك إنه واسع المغفرة"[1].

والمحبون لهم الوصول إلى مقام الدلال، فإن "دللك: كما يقول النابلسي-. أي جعلك في مقام الإدلال عليه زال عنك تعب التكاليف براحة الدلال"[2].

والعشق هو الآخر مصطلح له إسقاط التكاليف عن صاحبه، فرابعة العدوية وابن سينا على سبيل المثال قد جعلا عبادتهما على العشق، والعشق فناء ومحق، ولا تكاليف فيه، حيث أدى بأصحابه "إلى فكرة مشاهدة الذات العلية، حتى كان لهم الاستهانة بالوعد والوعيد وإسقاط التكاليف"[3].

و"الاصطلام" من المصطلحات الأخرى التي سخرها المتصوفة للتحلل من إقامة التكاليف، والشعراني يقول: "فلا كلام لنا معه – أي مع المصطلم – لزوال تكليفه حال اصطلامه"[4].

---
[1] - ص١٢٧ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية
[2] - ص١٦٩ شروح رسالة الشيخ أرسلام
[3] - ص٧١ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة
[4] - ص٧ ج١ الطبقات الكبرى

وما الذي يقوله المتصوفة عن "الخلة" وهي واحدة من مقامات علاقتهم بالله، يقولون: إن من سماتها "عدم الكلفة بينهما"[1] أي بين الله والصوفي، "فالصوفي إذا بلغ مرتبة الخلة بينه وبين الله سبحانه سقطت عنه التكاليف. واستباح لنفسه ما لا يبيحه الله تعالى لغيره من الناس- فإذا كان كل شيء في الدنيا ملك لله، فلخليله الصوفي هذا أن يستحل ما يشاء من هذا الملك"[2]. ولكن الملطي يقول: "أصحاب الخلة زعموا أنه تعالى قد جعل "لهم السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها على وجه الخلة التي بينهم وبين الله، لا على وجه الحلال- تماماً كما يحل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه"[3].

ولكن ما أفضل العبادات التي ينصحنا بها الصوفي؟ فالشيخ أبو الفوارس الكرماني "كان رضي الله عنه يقول: ما تعبد متعبد بأكثر من التحبب إلى أولياء الله تعالى"[4]. فالتحبب إلى المتصوفة أعظم شأنا من تحبب العابد إلى الله بأداء تكاليفه، بل وأعظم شأناً من اكتساب حب الله تعالى عن طريق حب رسوله ﷺ!

---

[1] - ص٥٨ الصوفية في نظر الإسلام
[2] - ص٢٦٦ نفسه، ص٦٣ رابعة العدوية
[3] - ص٦٤ رابعة العدوية
[4] - ص٩٠ ج١ الطبقات الكبرى

ـ التكاليف والمعرفة:

إذا عرف الصوفي الحقيقة فلا تكاليف عليه، لأنه لا تكاليف على الحقيقة، فالحقيقة والتكاليف لا يجتمعان والعارف أبو يزيد البسطامي حسب ابن عربي "قال للحق تعالى: لو علم الناس منك ما أعلم ما عبدوك. وقال له الحق سبحانه: يا أبا يزيد لو علم الناس منك ما أعلم لرجموك"[1].

[1] ـ ص٤٨ ج٤ بـ٤٣٦ الفتوحات المكية

فأية أسرار هذه التي بين الله عز وجل وأوليائه؟ ومساكين أهل الفرق الممكور بهم بما يعبدون، لو علموا حقيقة الأمر ما صاموا ولا صلوا ولا حجوا.

وذات مرة "سمع أبو يزيد رجلاً يقول: عجبت ممن عرف الله كيف يعصيه. فقال رضي الله عنه: عجبت ممن عرف الله كيف يعبده"[1]. فالمعرفة والعبادة لا يجتمعان، فمن عرف توحيد لا فاعل إلا الله، ومن كان على الجمع الذي فيه زوال الفرق، فلا عبادة له، ومن عرف التوحيد فلا تكاليف عليه.

ومرة "وجَّه أحمد بن حرب حصيراً – لأبي يزيد – وكتب معه إليه "صلِّ عليه بالليل"، فكتب أبو يزيد: إني جمعت عبادات أهل السموات والأراضين فجعلتهما في مخدة ووضعتها تحت خدي"[2]. فقد ظن المسكين أن أبا يزيد يتقرب إلى الله بالعبادات والتكاليف، وما علم أن التكاليف غير جديرة إلا بالعوام وأهل البدايات، وما حاجته إلى الصلاة وقد وصل إلى ما وصل؟!

لا تكاليف مع المعرفة أو مع الأوجب، وقد "قال الكتاني: العلم بالله أتم من العبادة له"[3]، والشيخ داود الكبير "كان يقول: إذا عرفت الله فلا

---

[1] - ص٣٤ أضواء على مسلك التوحيد
[2] - ص١٦٩ شطحات الصوفية
[3] - ص٣٧٧ طبقات الصوفية

تظن شراً، فما هناك بعد معرفته شر"[1] لأن الخير والشر، الطاعة والمعصية منه تعالى ولا فاعل سواه. ولما كان العارف لا فعل له إلا عن أمر إلهي من جهة أخرى، قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: اعرف الله وكن كيف شئت"[2]. فليس مع معرفة الله طاعة أو معصية أو لا معصية بعد معرفته.

التكاليف عند الصوفي على الحقيقة أو في الباطن، ليست هي مقصود العبادة، ولا خَلَقَ الله الإنس والجن ليعبدوه بالتكاليف، وعلى ذمة الشيخ ريوم إنه بمعنى قوله تعالى "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" قال ابن عباس: إلا ليعرفون"[3]. فالمعرفة هي الغاية من الخلق لا العبادات بالتكاليف، اللهم إلا إن كانت كوسيلة من وسائل الرياضات إلى حين، "فمن تمام نعمة الله على عبده – كما يقول ابن عجيبة – أن يوجه همته إليه ويفرغ قلبه من التعلق بغيره كائناً ما كان فيرزقه – من المعارف – ما يكفيه عن التعلق بغيره وهو الغني بالله"[4]. فالمعرفة تغنيك عن المخلوق كائناً من كان بما في ذلك النبي نفسه.

---

[1] - ص١٩٩ ج١ الطبقات الكبرى

[2] - ص٢٠٠ لطائف المنن

[3] - ص٣ الرسالة القشيرية، ص٢٤٢ ج٢ إيقاظ الهمم، ص١٠ أضواء على مسلك التوحيد

[4] - ص١٣٥ ج٢ إيقاظ الهمم

العارف صاحب السكر والشطح لا تثريب عليه ولا تكاليف، "فالسكران سكراً مباحاً – كما يقول اليافعي – غير مؤاخذ ولا مكلف"[١]، ولا تكاليف عليه إلا عند غلبة "الظلمة أي العبودية"[٢]، أما الواصل المتمكن فمن المحال أن ينتصر عنده الظلام على النور، وهؤلاء "هم السالكون بعد الجذب الراسخون في المعرفة"[٣]. فلا تكاليف على الراسخين في المعرفة، وما ردهم إلى التكاليف إن حدث، إلا العودة إلى الظلام، وهذا لن يكون، ولا هجرة بعد الفتح.

العارف لا تحجير عليه من حلال أو حرام، وابن الفارض يقول:

"فليصنع الركب ما شاءوا بأنفسهم هم أهل بدر فلا يخشون من حرج"[٤]

أي: أهل التصوف كأهل بدر الذين قيل بحقهم: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

ومن وصل بعد السفر خلع نعليه ليخلد إلى الراحة، "وقيل لموسى عليه السلام اخلع نعليك، أي: قد وصلت المنزل. ومن وصل إلى المنزل

---

[١] - ص٦٠٦ الروحية عند محيي الدين ابن عربي
[٢] - ص١٧٦ ج٢ إيقاظ الهمم
[٣] - ص١٧٣ ج٢ نفسه
[٤] - ص٨١ التصوف في شعر ابن الفارض

خلع نعليه"[1]. أي: "الكتاب والسنة"[2]، ولكن لا بد من أمارة لمن زعم خلع النعلين، إنها الكرامات أو الخوارق، "فمن ادعى أن بينه وبين الله تعالى حالة أسقطت عنه التكاليف الشرعية من غير ظهور أمارة تصدقه على دعواه فهو كاذب"[3]، أما إن جرت الكرامات بين يديه فإنه عندها صادق بما زعم وله ترك التكاليف ولا مؤاخذة عليه.

ليس على العارف من صيام، فالرسول كما هو معلوم قد نهى عن صيام الأعياد، ولما كانت أيام العيد تبدأ عند الصوفي بأول أيام المعرفة، فلا صيام عليه بعدها، وكل أيامه بعدها أعياد، "فمقام المعرفة لا يعطي الصوم- فكان يوم عيده يوم حصوله في هذا المقام- فقد قرنه – ﷺ – بالصوم المحرم"[4]. فلا صيام على العارف أو مع المعرفة ومن حق العارف استبدال الفرائض بما يراه، وابن عربي قد آثر استبدال الصوم بالجوع، لأن الصيام معلول بالطمع والخوف، وبهذا يقول:

"أجوع ولا أصوم فإن نفسي ... تنازعني على أجر الصيام
فلو فنيت أجيرتها لقلنا ... بإيجاب الصيام وبالقيام
فإن العبد عبد الله ما لم ... يكن في نفسه هدف لرامي"[5]

---

[1] - ص١٩٢ ج١ بـ٢٧ الفتوحات المكية
[2] - ص١٩٣ ج١ بـ٢٧ نفسه
[3] - ص٤١ الأنوار القدسية
[4] - ص٦٣٧ ج١ بـ٧١ الفتوحات المكية
[5] - ص٦٣٥ ج١ بـ٧١ الفتوحات المكية

أي: ليس عبداً لله من سعى للأجر، وإنما هو عبد الجنة أو النار، وورعه هذا قد امتد ليشمل الزكاة أيضاً، حتى رآها كالربا بلا فرق، ولما تساءل لمَ حرم الله الربا وأحل الزكاة وهي ربا، قال: "الزكاة ربو من زكا يزكو إذا ربا والربا محرَّم والزكاة ربا"[١] وإنها لحيرة!! أي: كيف يكون الربا حراماً ولا تكون الزكاة التي تربو عند الله حراماً، طالما هي ربا أو تربو. إنها المعرفة إذن!!

[١] - ص٤٣٨ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه

ـ الصوفي وأداء التكاليف:

الآذان يشوِّش الصوفي: كثيرون هم المتصوفة الذين شتموا المؤذن أو ما ينطق به من توحيد، والشيخ ابراهيم بن عصيفير الذي كانت الكرامات تجري بين يديه مذ كان صغيراً "كان يتشوش من قول المؤذن الله أكبر فيرجمه، ويقول: "الله أكبر" عليك يا كلب، نحن كفرنا يا مسلمين حتى تكبروا علينا. وكان أكثر نومه في الكنيسة. وكان رضي الله عنه يقول: أنا ما عندي من يصوم حقيقة إلا من لا يأكل اللحم الضاني أيام الصوم كالنصارى، وأما المسلمون الذين يأكلون اللحم الضاني والدجاج أيام الصوم فصومهم عندي باطل"[١]. فالنداء أو التأيُّه لا يكون إلا لمن كان على الفرق الذي يعني البعد "فإن لم يشاهد – الواصل كما يقول ابن عربي – إلا الله، ولم ير لغير الله عيناً فلا يجب عليه التكبير لأن التكبير لا يعقل إلا بوجود الأغيار"[٢] أو الفرق، ولا يعتقد بوجود الأغيار مع الله إلا المحجوبون والجهلة أو أصحاب الشرك أما العارفون الذين وصلوا إلى الحقيقة، فليس لهم نداء الآذان بصيغة الله أكبر، لأن النداء يؤذن بالبعد والآذان دليل على عدم عموم الرشد. فما شرع الآذان إلا لمن شغلته الأكوان، وما ثم إلا مشتغل لأنه بالأصالة منفعل"[٣]. فالآذان إذن لم يشرع إلا للمحجوبين أصحاب البعد الذين اشتغلوا بما سوى الله، أما المتصوفة

[١] ـ ص١٤٠ ج٢ الطبقات الكبرى
[٢] ـ ص٤١١ ج١ بـ٦٩ الفتوحات المكية
[٣] ـ ص٣٩٤ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه

فهم رعاة الأوقات عارفون بالميقات، والصوفي ابن وقته عامل بالأوجب أو بما يأمره الله به"[1]، فمن شغلته الأكوان فميقات صلاته الآذان، ومن شغلته الحضرة واستهلكته، فله من الله ميقاته أو رده، وما ثم إلا مشتغل والكل بحاله منفعل.

الاختلاف بين الواصلين والمحجوبين بيِّن وواضح، والقشيري يقول: "سمعت أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: لما دخل الواسطي نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها. فقال: أمركم بالمجوسية المحضة. هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجريها؟!"[2]. فالتكاليف بالمقارنة مع أحوال الكشف والمشاهدة أو الجمع مجوسية محضة، وتركها أولى لمن أفرد القصد إلى الله، وكأنها بالفعل عن أمر غير أمر الله، هذا إن كان الله هو نفسه عند أصحاب الجمع وأصحاب الفرق!

- الصوفي والوضوء:

إن توضأ الصوفي ونام، فليس عليه تجديد وضوئه، فالرجل ذا أسرار وعصمة "وقال رجل من النساك: أتيت إبراهيم ابن أدهم، فوجدته قد صلى العشاء، فقعدت أرقبه، فلفَّ نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب

---

[1] - ص٣١ الرسالة القشيرية
[2] - ص٣٢ نفسه

من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذَّن المؤذن، فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءاً، فحاك ذلك في صدري، فقلت له: رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعاً ثم لم تجدد الوضوء؟ فقال: كنت الليل كله جائلاً في رياض الجنة أحياناً وفي أودية النار أحياناً، فهل في ذلك نوم؟!"[1]. أي: بيقظته الروحية التي يصعب تصديقها أو تكذيبها أنكر تجديد الوضوء بعد النوم!

أما ابن عربي فيقول: إن النبي ﷺ لم يتوضأ بعد نومه، وإذا كان أهل الله هم ورثته، فهم مثله، ولا تجديد لوضوئهم بعد نومهم، ولقد قال الرسول ﷺ: "إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي-. ومن حصل على هذا المقام لم يُنقض وضوءه بالنوم كالشيخ أبي الربيع المالقي-. لقد كان له هذا المقام يوم الاثنين خاصة"[2]. أي: من كان له مقام اليقظة الروحية التي للنبي فلا تجديد لوضوئه إن نام لأنه لا غفلة لها نقض الوضوء، "فشرط الولي الكامل أن لا ينام له قلب-. "لأنه مطالب بحفظ ذاته الباطنة عن الغفلة كما يحفظ باليقظة ذاته الظاهرة"[3]، فلا تجديد للوضوء إلا لأصحاب النقص والغفلة أو الجهل.

---

[1] - ص٤١١ ج٤ إحياء علوم الدين
[2] - ص ٣٢ – ٣٣ ج١ الكبريت الأحمر
[3] - ص١٠٩ نفسه

ـ الإمامة والتصوف:

العلم بالكتاب والسنة ليس شرطاً للإمامة أو لإمام الجماعة حسب الصوفي، وابن عربي يقول: "لا يُشترط في الإمام كثرة العلم"[١]، وسبحان من حجب العلماء بعلمهم! بل ويجوز برأيه إمامة المرأة بالرجال، وفي ذلك يقول: "فمن الناس من أجاز إمامة المرأة على الإطلاق بالرجال والنساء وبه أقول"[٢]. إلا أن العورة عنده وعند شحرور هذا الزمان ليست إلا السبيلين فقط!

ليس العلم شرطاً لإمام الجماعة، وبرهاناً على صدق زعمه قال: إن الشيخ بقاء بن بطو الصوفي "زاره ثلاثة من الفقهاء "ذات مرة"، فصلُّوا خلفه العشاء فلم يُقم القراءة كما يريد الفقهاء فساء ظنهم به وباتوا في زاويته فأجنبوا ثلاثتهم وخرجوا إلى نهر على باب الزاوية فنزلوا فيه يغتسلون، فجاء أسد عظيم الخلقة وبرك على ثيابهم، وكانت ليلة شديدة البرد، فأيقنوا بالهلاك فخرج الشيخ من الزاوية فجاء الأسد وتمرغ على رجليه فاستغفروا الله وتابوا"[٣]. وهكذا انتصرت الخوارق لجهل الصوفي بالقراءة الصحيحة للقرآن في صلواته!!

---

[١] ـ ص٤٥٢ ج١ بـ٦٩ الفتوحات المكية
[٢] ـ ص٤٤٧ ج١ بـ٦٩ نفسه
[٣] ـ ص١٤٧ ج١ الطبقات الكبرى

وإذا ما هب الصوفي إلى الصلاة فلا يصليها إلا على عجل كنقر الديكة، فالشيخ أبو الحسن الشاذلي كانت صلاته موجزة في تمام. وكان يقول: صلاة الأبدال خفيفة"[1]، والشيخ أبو العباس المرسي "كانت صلاته موجزة في تمام، ويقول هي صلاة الأبدال"[2]، وليس هذا فحسب بل إن صلاة نقر الديكة بسبعين صلاة! فالشيخ محمد العجمي يقول لمريده: "يا علي متى كنت بمصر احرص على أن تصلي وراء الشيخ أبي العباس، فإنها بسبعين صلاة"[3].

العارفون لا يكترثون بشروط إقامة الصلاة، "وكل عمل مُشرع، حسب ابن عربي – فهو صلاة"[4]، "فعبادة هؤلاء الصوفية – كما يقول ابن عجيبة – عظيمة في المعنى وإن كانت قليلة في الحس، إذ تصرفاتهم كلها عبادة، نومهم عبادة وأكلهم عبادة. وقال أبو سليمان قد يدرك العارف على فراشه ما لا يدركه في صلاته. فإن فضل الله لا يُنال بسبب"[5] من التكاليف وإن كانت الصلاة حضوراً مع الله، فالحضور هو روحها، وإذا ما كان الصوفي في حضور دائم مع الله فكل أحواله عندها صلاة، وابن عربي يقول: "من رأى روح الصلاة وهو الحضور مع الله

[1] - ص١٤٦ لطائف المنن
[2] - ص١٦ ج٢ الطبقات الكبرى
[3] - ص٣٦ – ٣٧ سير الأولياء
[4] - ص٢٩٥ ج٢ بـ١٧٦ الفتوحات المكية
[5] - ص٩٤ ج٢ إيقاظ الهمم

دائماً ومناجاته كانت جميع أفعاله صلاة"[1]. فكل أفعال الصوفي برأيه صلاة! والولي كما يقول الدباغ: "لا يمكن أن يترك الولي الصلاة"[2]، لأن صلاته ذاتية، شأنه في ذلك شأن السموات والأرض.

الصوفي لا يقيم الصلاة ومن المحال عودة الواصل إلى الفرق إلى البداية إلى العوام تارة أخرى، وإن رأيته متخلفاً بجسده عن المسجد فهو يقيم الصلاة في مكان آخر بعيداً عن هذا المكان، والغزالي بدوره قد دعم هذا الزعم برواية تقول: إن الولية "فاطمة السلماسية كانت تخرج وقد أذَّن مؤذن الظهر من سلماس، فتصلي الظهر جماعة في بسطام"[3]، والشيخ علي الخواص البرسلي لم يكن يصلي في بلده لا جماعة ولا غيرها، وإنما في الجامع الأبيض برملة لد"[4]، والشيخ ابراهيم المتبولي "لا يراه أحد يصلي الظهر في مصر أبداً، وكان بعض الفقهاء ينكر عليه. فسافر الشام، فوجد سيدي ابراهيم في الجامع الأبيض برملة لد يصلي، فسلم عليه، وسأل قيِّم الجامع عنه، فقال: سيدي ابراهيم دائماً يصلي الظهر عندكم؟ فقال: نعم، فرجع عن إنكاره"[5]، والشيخ عبد القادر الدشطوي الشهير بعدم إقامته للصلاة "أذن الظهر ذات مرة – فتغطى الشيخ بالملاية وغاب

---

[1] - ص٣٨٥ ج١ بـ٦٨ الفتوحات المكية
[2] - ص٢٨٨ ج٢ الإبريز
[3] - ص١٠٤ سر العالمين
[4] - ص١٥٢ ج٢ الطبقات الكبرى
[5] - ص٨٦ ج٢ نفسه

ساعة ثم تحرك، ثم قال للناس معذورون. يقولون عبد القادر ما يصلي والله ما أظن أني تركت الصلاة منذ جُذبت ولكن لنا أماكن نصلي فيها – والشعراني يقول: فقلت للشيخ محمد ابن عنان رضي الله عنه "في ذلك"، فقال: صدق له أماكن، إنه يصلي في الجامع الأبيض برملة لد"[١]، والشيخ محمد الشربيني لا يقيم الصلاة وكراماته أعظم من الحصر، "وكان الشيخ محمد بن عنان وغيره ينكرون عليه لعدم صلاته مع الجماعة-. وكان يقبض من الهواء كل شيء"[٢] كالدراهم والفاكهة وغير ذلك إكراماً له لتركه صلاة الجماعة!!

والشعراني يقول: "اعلم يا أخي أن من عباد الله من لا يصلي الصلوات الخمس إلا بمكة، ومنهم من لا يصليها إلا ببيت المقدس، ومنهم لا يصليها إلا بالمدينة المشرفة، ومنهم من لا يصليها إلا بجبل قاف، ومنهم من لا يصليها إلا في قبة أرين، ومنهم من لا يصليها إلا فوق سد اسكندر، ومنهم من لا يصليها إلا على جبل المقطم. فربما لانَ – أو طعن – الناس بمثل ذلك الفقير ويقولون: إنه تارك للصلاة وهو خطأ"[٣]. أما الرفاعي فقد كان أعظم من التحديد الذي قال به هؤلاء وإسراؤه التعبدي هو الأعظم مقارنة بإسراء النبي ﷺ، حيث صلى الصبح في مكة المكة

[١] - ص١٣٨ ج٢ الطبقات الكبرى، ص١٥١ ج١ م٢٦ اليواقيت والجواهر
[٢] - ص١٣٦ ج٢ الطبقات الكبرى
[٣] - ص١٥١ ج١ م٢٦ اليواقيت والجواهر

والظهر في المدينة المنورة، والعصر في بيت المقدس، والمغرب في بعلبك. والعشاء وراء جبل قاف"[1].

والمؤسف أن هذه المزاعم غير خاضعة لمقولتي الصدق والكذب، بعكس المعراج النبوي الذي ثبت صدقه أمام تجربة المحسوس أو الإسراء، كمقدمة لتصديق خبر المعراج إلى السماء، والمؤسف أكثر أن جبل قاف المحيط بالأرض التي كالبساط والتي تستند عليه السماء ليس إلا أكذوبة من أكاذيب الكشف التي لا وجود لها في الواقع.

- الصوفي وصلاة الجماعة:

من المعلوم أن أفضل الصلوات الصلاة مع الجماعة، إلا أن العرفان والخوارق لم تكن للصوفي إلا وهو على التجرد والعزلة والخلوة والزهد في كل ما سوى الله، ومن هذا التعارض سنرى ما يقوله عن صلاة الجماعة بما فيها صلاة الجمعة.

الصوفي لا يصلي الجماعة اقتداء بالإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، حسب الشعراني القائل لقد "مكث رضي الله عنه خمساً وعشرين سنة لم يشهد الجماعة، فقيل له: ما يمنعك من الخروج؟ فقال: مخافة أن أرى منكراً أحتاج أن أغيِّره"[2].

---

[1] - ص١٠٣ قلادة الجواهر

[2] - ص٥٢ – ٥٣ ج١ الطبقات الكبرى

مالك بن أنس على ذمة الشعراني، ضرب صلاة الجماعة بفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليعطل بعدها الفضيلتان بفضيلة الجبن، وهذا برأيه حجة كافية لترك الصوفي لصلاة الجماعة، والشيخ أبو الحسن البوشنجي "يُعاتب في ترك الجمعة والجماعة والتخلف عنها، فيقول: "إن كانت البركة في الجماعة، فإن السعادة في العزلة"[1]. والسعادة بالطبع أولى من البركة، وشتان ما بينهما! أما الشيخ ابراهيم بن أدهم، فقد كان "يقول: إني لأتمنى المرض حتى لا تجب عليَّ الصلاة جماعة ولا أرى الناس ولا يروني"[2] "فكلهم عدو لي إلا رب العالمين"! والشيخ محمد العدل مضى عليه "سنة كاملة لا يحضر جمعة ولا جماعة"[3]، لأنه إما على جمع دائم أو لأنه يخجل من مشاركة العوام في شؤونهم، والشيخ محمد عنان "حضرته صلاة الجمعة مرة بالقرب من الجامع الأزهر، فقال: "هذا مجمع الناس وأنا أستحي من دخولي فيه"[4]، والشيخ بركات الخياط صاحب الجيف والكرامات الكثيرة "كان يوم جمعة فسلم المؤذن على المنارة فقالوا له: نصلي الجمعة. فقال: ما لي عادة بذلك. فأنكروا عليه. فقال: نصلي اليوم لأجلكم. فخرج إلى جامع المارداني فوجد في الطريق مسقاة الكلاب، فتطهر منها ثم وقع في مشخة حمير ففارقوه. "ثم قال

---

[1] - ص٢٨٩ تلبيس إبليس
[2] - ص٧٠ ج١ الطبقات الكبرى
[3] - ص١٢٦ ج٢ نفسه
[4] - ص١٢٠ ج٢ نفسه

لأحد مريديه": والله يا ولدي مسقاة الكلاب إنما هي مثال مطعمهم ومشربهم، وكذلك مشخة الحمير إنما هي صورة اعتقادهم النجس"[1]. فاعتقاد المقيم للجمعة برأيه نجس، وإذا ما كان أصحاب الجماعة على طعام حرام كما يزعم فليس له مشاركتهم في المكان والعبادة، أو لعله على استقامة مع توحيد لا موجود إلا الله، الذي فيه استواء الطاهر والنجس، ومن أجله كان وضوؤه من بول المشخة!

أما الشيخ أمين الدين "فليلة مات كان مريضاً، فزحف إلى ميضأة الجامع فوقع فيها، فطلع والناس يحاذونه فصلى بالناس المغرب وثيابه تخر ماء"[2]، وابن عربي يقول: "فصلاته – أي الصوفي – مقبولة سواء صلى بالنجاسة أو لم يصل، والأولى إزالتها"[3]. وإذا ما كانت العورة محدودة بالسبيلين حسب رأيه القائل: العورة "عندنا السوءتان فقط"[4] لا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة، "فليست العورة في المرأة – كما يقول – إلا السوءتين"[5]، وبهذا فلا ضير على الشيخ ابراهيم العريان، حيث كان رضي الله عنه يطلع المنبر ويخطب عرياناً"[6].

[1] - ص١٤٤ ج٢ نفسه
[2] - ص١٤٦ ج٢ نفسه
[3] - ص٤٠٩ ج١ بـ٦٩ الفتوحات المكية
[4] - ص٤٠٧ ج١ بـ٦٩ نفسه
[5] - ص٣٠٨ نفسه
[6] - ص١٤٢ ج٢ الطبقات الكبرى

الصوفي لا يخرج لصلاة الجماعة إلا بأمر إلهي، ويبقى جالساً دونها السنوات الطول حتى يقول: حدثني قلبي عن ربي آمراً لي بالخروج إلى صلاة الجماعة، فالشيخ عتيق مثلاً رفض الخروج لصلاة الجمع متعللاً بالمرض، ويقول الرواس: "ثم عدت له قبل الجمعة فوجدته قد اغتسل وهو يلبس أثوابه للجمعة، قلت: يا سيدي أنت قلت أنك ما تخرج اليوم. قال: يا بني! بعد رواحك قال لي الحق سبحانه: اخرج للناس، اعمل لهم تسنيماً فامتثلت الأمر وها أنا خارج"[١]. فقد أمره الله بالخروج ليعمل للناس تسنيماً، وإلا فلا خروج له إلى جمعة أو جماعة وإلى ما هنالك.

أما ابن عربي الذي عقلن الفكر الصوفي، فقد بحث في معنى الجماعة على الحقيقة، ورأى أن "ظاهر الإنسان جماعة، فهو في نفسه صف وحده"[٢]. فكل مصل فهو بتعدد أعضائه جماعة، فصلاة المنفرد جماعة، كما هي الجماعة التي تضم أكثر من إنسان، إنه صف وحده، ومن ناحية أخرى إن كان الصوفي حاضراً مع الله في صلاته فهل يرى إمامه ومن بجانبه، فصلاته عندها كصلاة المنفرد ولا جماعة حينئذ "فمن جعل الحق في قبلته وواجهه غاب عنه إمامه بلا شك"[٣]. ولهذا فلا جماعة بالعدد أو بالآخرين إلا للمحجوب عن الله، وإذا ما كانت الجمعة تشبه

---

[١] - ص٦٢ ــ ٦٣ سير الأولياء
[٢] - ص٤٥٢ ج١ بـ٦٩ الفتوحات المكية
[٣] - ص٤٥٥ ج١ بـ٦٩ نفسه

توحيد الكثرة في الألوهية فإن صلاة المنفرد تشبه أحدية الذات، وبناء عليه فصلاة المنفرد أعظم من الصلاة في جماعة وهو معنى قول ابن عربي: "وكل صلاة ما عدا الجمعة تعطي ما تعطي الجمعة من حيث ما هي صلاة من تكبيرة الإحرام إلى التسليم منها وتعطي ما لا تعطيه الجمعة من العلم بأحدية الحق التي لها الغنى"[1]. وبالتالي فلا منفرد إلا وصلاته على الجماعة، "وأقل ما ينطلق عليه اسم الجماعة – كما يقول – اثنان. يقول الله: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي-. وقد أدخل نفسه مع الجر في الصلاة وكل يصلي مع ربه بلا شك، فهو في جماعة بلا شك، ويكون الحق إماماً والعبد مأموماً-. فإن شئت قلت أنه صلى فذاً – أو فرداً -، وإن شئت قلت أنه صلى في جماعة والحق إمام. ثم إن من العارفين من يقيمه الحق في مقام الإمامة ويكون الحق مأموماً-. فاذكروني أذكركم"[2]. فالصوفي في جماعة سواء مع أعضائه أو مع الله، ولا ذنب له إن رآه المحجوبون فرداً، فسيان لديه المسجد والخلوة، وهل إذا صلى الصوفي إلا "الحق هو المصلي بأفعال عبده، أعني الأفعال الظاهرة من العبد في الصلاة؟"[3]، وهل الجماعة ولو كانت اثنان فقط غير هذا بتوحيد لا فاعل إلا الله؟!

[1] - ص٤٥٧ ج١ بـ٦٩ نفسه
[2] - ص٤٤٣ ج١ بـ٦٩ نفسه
[3] - ص٤٠٧ نفسه

إن للمسافر عند الفقهاء أحكام تخصه، فليس للمسافر جمعة، والصوفي هو الآخر في سفر دائم، "فالأكابر – كما يقول ابن عربي – من أهل الله فهم مسافرون على الدوام، فمن المحال عليهم الاستيطان"[١]. فهو مسافر دوماً من مقام لمقام، ولا قرار له حتى تجب عليه الجمعة أو الجماعة "وأما هذا المسافر فإن حاله يقتضي أن لا تجب عليه الجمعة، فإنه ما بين ابتداء الغاية وانتهاء الغاية، فهو بين مِن "مقام وإلى مقام"[٢]. فالجمعة إذن ليست إلا لمن اجتمعت عنده "مِنْ" و "إلى" حيث لا سفر، وهذا عند أهل الله لا يكون إلا للمريد أو العوام.

[١] - ص٤٦١ ج١ بـ٦٩ نفسه
[٢] - ص٤٥٨ نفسه

ـ حيلة إسقاط التكلُّف:

فإذا قلت للصوفي أن إسقاط التكاليف إنكار لما أمر الله به، تراه يقول: لا، لا، أعوذ بالله من الخذلان فلا إسقاط للتكاليف، وإنما إسقاط التكلف لإقامة التكاليف هو المقصود، والشاذلي "قال رضي الله عنه في معنى قول بعضهم: يصل الولي إلى حد يسقط عنه التكليف. المراد به سقوط كلفة الأعمال ومشقتها"[1]، والشيخ أبو العباس أحمد بن عطاء "كان يقول: العارف لا تكليف عليه. أي لزوال التعب والنصب عنه، فأفعاله الشاقة على غيره، لا يتكلف لها، بل هي كخروج النَفَس ودخوله"[2]. فإذا ما كان الصيام فلا أيسر منه عليه، وإذا ما أذن المؤذن فلا تراه إلا وهو مع الجماعة، وإذا ما كان موسم الحج فلا تراه إلا وقد ذهب إلى الكعبة دون تردد أو كسل. وهكذا مع كل التكاليف، ولم يبقَ لتمام زعمه إلا انعدام العقل عند المستمع لعل الله يلهمه التصديق!

ولكن كيف لنا تصديق هذه المزاعم من رجل ليس بينه وبين الجماعة صلة، ليس بينه وبين الحج إلا التأويل، ليس بينه وبين النداء للصلاة إلا الرجم والشتائم، فما حقيقة قولهم إذن؟ إنها التقية. والشعراني من مقارنته بين مقام إسقاط التكلف مع حقيقة التصوف، يقول: "لقد كُشف لي عن نقص ذلك المقام – مقام إسقاط التكلف – لما يصاحبه من هوى

[1] ـ ص٦٨ ج٢ الطبقات الكبرى
[2] ـ ص٩٦ ج١ نفسه

النفس"[1] أي: إسقاط التكلف هو الركون لحلاوة التكاليف، وهذا نقص في حق العارف.

أما الشيخ عبد الغني النابلسي فقد استخدم مصطلح هذه الحجة بمعنى مختلف عما يعنيه ارتباطها بالتكاليف الشرعية، فإذا ما كانت ناصية الولي بيد الله تعالى، فلا كلفة عليه ولا مشقة ولا له نزاع مع نفسه، لأنه لا فاعل عندها إلا الله، ومن عرف القدر أو سر القدر، فلا تراه إلا وقد أقدم لما قُدِّر عليه طاعة كان أو معصية دونما تردد أو التفات لمشقة أو تكلف وهو "ممن يدخل الجنة بغير حساب"[2]. أي إن تارك التكاليف بهذا السبب كمن في الجنة التي لا حساب فيها ولا تكاليف.

[1] - ص١٥٠ ج١ م٢٦ اليواقيت والجواهر
[2] - ص١٢٠ شروح رسالة الشيخ أرسلان

ـ الحلال والحرام بالمعنى الصوفي:

الصوفي لا يكترث بالأوامر والنواهي الشرعية، فللرجل شرعه الذي يخصه، وهناك فرقاً شاسعاً بين المؤمن الملتزم بالشرع النبوي الإلهي، والعارف الذي يأخذ شرعه من الله مباشرة بلا واسطة، "فالمؤمن – كما يقول عبد القادر الجيلاني – يأكل بالشرع لا بالهوى، والولي يأكل بأمر الله عز وجل، والبدل الذي هو وزير القطب يأكل بفعل الله عز وجل، والقطب أكله وتصرفه كأكل النبي ﷺ وتصرفه، كيف لا يكون كذلك وهو غلامه ونائبه وخليفته في أمته"[1]. فالمؤمن عن طريق الخبر النبوي أو العامي الذي ليس له تجربة في الكشف، يستمد شرعه من الرسول صلى الله عليه وسلم، أما الولي فإن الله يأمره مباشرة بفعل كذا وترك كذا بغض النظر عما يعنيه الشرع النبوي المخصص للعوام، أما الأبدال أو البدل فإن الله يطعمه ويسقيه، وليس في هذا حلال أو حرام، والقطب له أن يشرِّع لنفسه على الأقل كالنبي ﷺ في أكله وتصرفه، ومن الجائز مثلاً أن يتزوج بأكثر من أربع زوجات دفعة واحدة، ولا ضير عليه شرعاً!!

وإذا كان الشرع الإسلامي يراعي المصلحة الاجتماعية، فإن الشرع الصوفي يراعي أحوال السالك ومصالحه "وبعضهم – مثلاً –

[1] ـ ص١٩٨ الفتح الرباني

يشرب الخمر لينفِّر به الملائكة، الذين لا يدعونه يحظى من النوم لحظات"[1].

وبانفصال التشريع عن المصلحة الاجتماعية في التصوف سنرى عندها الغرائب في تفسيرهم لحكمة الشرع، فالدباغ مثلاً لا يلتفت إلى المعنى التخريبي لظاهرة اللواطة في المجتمع، وإنما يراها قضية تخص الملائكة، وفي ذلك يقول: "إنما حرم الله اللواط لأنه يسقط مع نطفة الرجل عدد من الملائكة فإذا وقعت النطفة في الدبر الذي هو ليس محلاً للحراثة – ماتوا جميعاً – ومرة قال: إنهم بمنزلة فرخ الحمام، إذا سقط على صخرة من عش عالٍ أترى يبقى فيه شيء؟"[2].

البدع الصوفية تسمى سنة، فهي حسنة وللشيخ أن يسن ما شاء من البدع "فالشيخ أبي مدين – كما يروي ابن عربي – سنَّ لأصحابه ركعتين بعد الفراغ من الطعام. ومشت سنة في أصحابه"[3]، بل ولهم صياغة صلوات خاصة بهم، وغالباً ما تكون معبرة عن عقائدهم الخاصة بهم، كصلاة ابن مشيش التي يقول فيها: "اللهم صل على من منه انشقت الأسرار. وانفلقت الأنوار. وتنزلت علوم آدم. ولا شيء إلا وهو به

[1] - ص٢٣٣ التصوف بين الحق والخلق
[2] - ص٤٥٨ ج١ الإبريز
[3] - ص٤٨٧ ج٤ الفتوحات المكية

منوط إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط"[1]. ومن الواضح أن صلاته هذه مكرسة لترسيخ عقيدته في الحقيقة المحمدية وتقديس الأولياء عند مريديه وأتباعه.

وعندما رأى الغزالي أن العتمة ضرورية لصراع الإدراك الحسي ربط عندها الصلاة بالعتمة"[2] وجعلها من ضمن الرياضات الصوفية.

ومن الجائز وفق الشرع الصوفي القَسَم بالأولياء لما لهم من حرمة عظيمة عند الله، فالشيخ ابراهيم الأعزب مثلاً يسأل عن حال اعترت الشيخ أحمد الرفاعي، فيقول: "فقلت له بحياة الشيخ منصور، أخبرني أين كنت الساعة؟ فقال: أي إبراهيم أقسمتَ عليَّ بالقسم العظيم-.!"[3]. فليس في هذا شرك، فليس من شرك إن أقسمت بالواسطة فلولا الواسطة لذهب الموسوط كما يقولون!

وإذا ما أمرك الصوفي بأمر ما، فإياك والرفض، فربما هو أمر إلهي جرى على لسانه، وإلا فالعقوبة قاسية والانتقام شديد، وذات مرة جاء أحد العوام وكان صائماً إلى جمع من المتصوفة، فيهم أبي تراب وأبي يزيد فأمروه أن يأكل معهم، فتعلل بالصيام وأصر عليه، وأخيراً قال "له أبو تراب: كل معنا ولك أجر شهر. فقال: أنا صائم. فقال أبو يزيد:

---

[1] - ص١٨٤ ج٢ الإبريز
[2] - ص١٦٣ ج١ إحياء علوم الدين
[3] - ص٦٩ قلادة الجواهر

دعوه فإنه سقط من عين الله. فما مضى مدة يسيرة حتى أُخذ الرجل في سرقة فقطعت يداه"[1]. فالولي لا يسامح، إنه حقود كما يقولون، ولا يغفر لمن رفض أوامره.

والغريب أن المتصوفة يروون العجائب في مناقب شيوخهم رغم مخالفتهم للشرع "وقيل – كما يروي السهروري – مات الخواص في جامع الري وسط الماء، وذاك أنه كان به علة البطن، وكلما قام دخل الماء وغسل نفسه، فدخله مرة ومات فيه، كل ذلك لحفظه على الوضوء والطهارة"[2]. وهل بعد ذلك من جهل بالشريعة؟ "وكان بعضهم على وجهه قرح لم يندمل اثنتي عشرة سنة، لأن الماء كان يضره، وكان مع ذلك لا يدع تجديد الوضوء عند كل فريضة"[3]. ولكنها وأمثالها حكايات رضيت بالجهل وصولاً إلى تقرير حرص الأولياء على الفرائض، فليت شعري! والشيخ سري السقطي يحرم على نفسه شرب الماء البارد لأنه رأى في منامه جارية أو حورية، زعمت أنها لمن لم يشرب الماء البارد، وشهد الجنيد أنه رأى بنفسه قطع الكوز الذي حطمته الحورية"[4].

---

[1] - ص١١٨ شطحات الصوفية
[2] - ص١٥٨ عوارف المعارف
[3] - ص١٥٨ نفسه
[4] - ص١٨٥ دراسات في التصوف الإسلامي

ويحكون أن الشيخ صفوان بن سليم "كان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد، وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام"[1].

و"رحلة" العابدة يقول الغزالي: "صامت حتى سوادت وبكيت حتى عميت، وصلت حتى أُقعدت"[2] والغزالي يروي أمثال هذه القصص لتكون قدوة لمن أراد سلوك الطريق. والشيخ سري السقطي بقي ثمان وتسعين سنة ما رُؤي مضطجعاً. والشيخ أبو محمد الجريري جاور بمكة سنة، لم ينم فيها ولا تكلم ولا استند إلى عمود أو حائط ولا مدَّ رجله قط، والشيخ مسروق لم ينم قط إلا وهو ساجد"[3].

الصوفي كما رأينا من قبل لا يتخذ التكاليف من باب أنها أوامر ونواهي وطاعات، وإنما من باب أنها رياضات، ولهذا لا نراه في عباداته مكترثاً بالمأثور النبوي ولا بما تعنيه علاقة التكاليف بالشرع، فالشيخ مالك بن دينار بقي أربعين سنة على شهوة اللبن وما أكله، وأبو سليمان الداراني وموسى الأشج حرما على نفسيهما أكل الملح الجريش، وعتبة الغلام على نفسه التمر واللحم المشوي، وسري السقطي حرم على نفسه

[1] - ص٤١٢ ج٤ إحياء علوم الدين
[2] - ص٤١٦ ج٤ نفسه
[3] - ص٤١٠ ج٤ نفسه

أكل الجزر المغموس بالدبس"[1]. وما تلك المخاريق بزعمهم إلا قهراً للنفس، فقهر النفس لديهم هو مصدر التشريع والأحكام، ولذلك قال أبو سليمان: "ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها"[2]. وكثيرون هم الذين كفوا أنفسهم عن الحج أو الجهاد مقارعة لأنفسهم التي حدثتهم بذلك أو بتلك الشهوات على حد تعبيرهم، ومنهم "من يتعبد – أو يتقرب إلى الله عز وجل – بترك النكاح أو ترك أكل اللحم، أو الفاكهة مثلاً- ويرى لجهله – كما يقول ابن القيم – أن ذلك مما عليه فيوجب على نفسه تركه- ومنهم من يتعبد بالعبادات البدعية التي يظنها جالبة للحال والكشف والتصرف"[3].

الشرع الصوفي من لدن صاحبه، استغفر الله! إنه من الله كما يزعمون، فإن رأيت أحدهم يأكل ما يأكل فلا تعترض عليه، فربما أن الله أمره بهذا الطعام أو بهذا الشراب، وإن ذكَّرته بالشرع فلا تراه إلا قائلاً: حدثني قلبي عن ربي أن أشرب هذا أو ذاك، أو ربما قال: إن العِرقْ الذي أتعرف به إلى الحلال والحرام لم يتحرك عليَّ، وإلا لامتنعت عنه، ويُروى أن الشيخ سري السقطي كان له عرق في إصبعه يضربه إن مد يده إلى طعام فيه شبهة، بل إن الشيخ أبا العباس المرسي زعم أن له ستون

---

[1] - ص٩٣ ج٣ نفسه
[2] - ص٩٥ ج٣ نفسه
[3] - ص١٧٤ ج١ مدارج السالكين

عرقاً في يده تضرب عليه إن امتدت إلى محرَّم"[1]. وبهذه العروق يكون تحرر الصوفي من التعرف إلى الأحكام الشرعية، وبها أيضاً يكون تحرره من أحكام الآخرين ومؤاخذتهم، وها هي الخوارق تشهد بعصمته، وعلى أي حال كان، فالشيخ أبي العباس مثلاً: "كان أهل مصر لا يمنعون حريمهم منه في الرؤية والخلوة، فأنكر عليه بعض الفقهاء، فقال: يا فقيه! اشتغل بنفسك فإنه بقي من عمرك سبعة أيام وتموت. فكان كما قال"[2]، ومات الفقيه وبقي الشيخ يخلو بالنساء دونما أن تضربه عروقه إنكاراً على أفعاله.

[1] - ص١٤ ج٢ الطبقات الكبرى
[2] - ص١٥٧ ج١ نفسه

ـ الأوامر من الله في الشرع الصوفي:

الصوفي يحلل ويحرم فللظاهر شرع يخصه، وللباطن شريعة خاصة، ولكل منهما كتاب، وكتاب "اليقين"[1] عند القوم لأحكام الباطن، ولا يكون الباطن على شريعة لدنية إلا بعد وضع "كتاب اليقين في يده والاطلاع على أسراره"[2]. فالنواهي وفق الشرع مشغلة بالدنيا، والأوامر أو المباح مشغلة بالآخرة، أما الطعام الحلال وفق اليقين، أو هذه الأطعمة لا تعرف إلا بمعرفة الحق عز وجل ومعرفته إنما تكون في القلب لا في الدفاتر منه تكون، لا من خلقه"[3]، "فكل ما سواه صنم فكسِّر الأصنام وطهر هذا البيت – أو القلب"[4] عن كل ما سواه سبحانه "وملعون ملعون من كانت ثقته بمخلوق مثله"[5]، "فادخل العلم الخاص علم القلوب والأسرار، فإذا تمكن – السالك – في هذا العلم صار سلطان دين الله عز وجل يأمر وينهى عن نهيه- يُؤمر بالأكل فيأكل، يؤمر بالجوع فيجوع"[6]. فالحلال والحرام حسب عبد القادر الجيلاني لا يؤخذ من الكتب ولا من كل ما سواه، وإنما من الله مباشرة عن أمر إلهي على قلب الصوفي، فإن أمره أكل وإن نهاه انتهى وإياك والفقهاء فإنهم جميعاً "لم يصلوا إلى

---

[1] ـ ص٣٤٤ الفتح الرباني
[2] ـ ص٣٤٤ نفسه
[3] ـ ص١٨٥ نفسه
[4] ـ ص١٨٦ نفسه
[5] ـ ص١٨٧ نفسه
[6] ـ ص١٨٧ نفسه

الحقائق"[1]، وملعون من يثق بأحكام مخلوق مثله، مهما يكن ذلك المخلوق، ولكن كيف لنا استثناء الأنبياء من هذه اللعنة غير المحدودة الإطلاق طالما هم من جملة الخلق أو من جملة ما سوى الله؟!

كتاب اليقين أو كتاب الباطن، مغاير لكتاب الظاهر، إنه عن الوجد والذوق واللدنية ومنه يكون الأمر والنهي، وقائلهم يقول:

"يا صاحبي أنت تأمرني وتنهاني ... والوجد أصدق نهّاء وأمّار
فإن أطعك وأعصى الوجد رحت عمٍ ... عن اليقين إلى أوهام أخبار" [2]

فكتاب اليقين عند الصوفي أصدق، ففيه اليقين، وكيف لأهل الله اتخاذ أحكام بنيت على وهم الخبر بديلاً عن أمر الله المباشر، ففي الوجد المصدر الأصدق للتشريع وبه أو بأحكامه يأخذ ولو احتججت عليه بالرسول والقرآن فلا انصياع له إلا لما يأمره قلبه عن ربه.

لا اعتراض على الصوفية "ويظن من لا علم له أنهم أكلوا حراماً وليس كذلك"[3]، "ولا تعترضوا عليهم في تناول الأقسام، فإنهم متناولون بالأمر لا بالهوى- لهم أقسام قد سبق بها العلم لا بد لهم من تناولها"[4]. فإن كانت قسمته في القدر والقضاء أن يشرب هذا الخمر في هذا اليوم، فلا بد

---

[1] - ص١٧٣ ج٣ مدارج السالكين
[2] - ص٤٤٢ ج٣ مدارج السالكين
[3] - ص٢٨ ج١ الكبريت الأحمر
[4] - ص١١٥ الفتح الرباني

أن يشربه وبعلمه بما سيجري فلا معصية إن سارع إلى شربه، لتكون كل أفعاله طاعات، وهناك وجهاً آخر لهذه المسألة، فالرفاعي مثلاً أتى بالخمر لأصحابه، وبعد أن حوله عسلاً "شربوا منه حينئذ كلهم. "فإن الله" يقلب له الأعيان"[١]. إلا أن حامل الخمر ملعون، أو ربما أن الله قد أمر الرفاعي بحمله لأجل المعجزة، وعندها لا اعتراض بمن سواه.

في الظاهر خمر وفي الباطن عسل وحتى عيادة المرضى لها ظاهر وباطن، والشيخ عبد القادر الجيلاني امتنع عن عيادة المرضى عن أمر إلهي نهاه عن ذلك العمل، وفي ذلك يقول: "كان من دأبه صلى الله عليه وسلم عيادة المرضى، ونحن قد مُنعنا من ذلك"[٢]. فإن الله منعه من زيارة المرضى فكيف له أن يقلِّد الرسول ﷺ ويترك ما أمره الله به، فالواجب وفق كتاب اليقين للأوجب وحكم الباطن هو الأولى.

الصوفي في كل أفعاله مأمور من الله، "فالولي الكامل في غالب أموره – كما يقول الرفاعي أيضاً – لا يعمل عملاً إلا عن إذن سماوي"[٣]. وأولياء الله كما يقول الجيلاني: "لا يتحركون حركة ولا يخطون خطوة إلا بإذن صريح منه – تعالى – لقلوبهم، لا يأكلون من الأشياء المباحة ولا يلبسون ولا ينكحون ولا يتصرفون في جميع أسبابهم، إلا بإذن صريح

---

[١] - ص١٠٣ قلادة الجواهر
[٢] - ص٣٢٥ الفتح الرباني
[٣] - ص١٤٣ قلادة الجواهر

لقلوبهم، هم قيام مع الحق عز وجل، قيام مع مقلِّب القلوب والأبصار"[١].

فالله هو المشرع، ومنه يكون تشريع كتاب اليقين لا من سواه، وهو معنى قولهم: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. وبارتباط السلوك الصوفي بالأمر الإلهي المباشر حتى في تناول الحلال، عندها لا معصية في كل ما يقوم به من أفعال مهما تكن، ففي "جميع أحواله يصير كله موافقة من غير لمَ وكيف"[٢] ليصبح شأنه شأن الخضر أو الملائكة بلا خلاف.

الحق تعالى ينادي الصوفي ليأمره بفعل ما، وعندما أراد ابن عربي تأويل الصيام نراه وقد أسرع إلى فكرة الأمر الإلهي قائلاً:

"ناداني الحق من سمائي بغير حرف من الهجاء"[٣]

وبعدها كان له حرية التأويل بما شاء ليقول أيضاً:

"قال لي الحق في منامي ولم يكن ذاك من كلامي"[٤]

---

[١] - ص٢٦ الفتح الرباني

[٢] - ص٢٩٠ نفسه

[٣] - ص٦٢٧ ج١ بـ٧١ الفتوحات المكية

[٤] - ص٦٢٨ ج١ نفسه

فأوامر الله تأتي إلى ابن عربي بنداء لا حرف ولا ألفاظ في كلماته أو برؤية الله في المنام، أما عبد القادر الجيلاني فالمسألة لديه مختلفة حيث يقول: "علامة صدق طلب نفسك الطعام أن تسمع صارخاً من بطنك كصياح الفرُّوج عند ذلك "قائلاً": أوصل لها ما يقوم به أودها قال الله تعالى: "فألهمها فجورها وتقواها" "أضحك وأبكى". لا تعمل بهاتين الآيتين إلا بعد دخول القلب على ملكه، عند ذلك يأتي الفعل والإلهام، وقبل الدخول يفرِّق بين وارد في باطنك إلهام شيطان وإلهام طبع وإلهام نفس وإلهام ملك"[1]. وللهروب من الإلهام الشيطاني جعل كلمات الإلهام قرآنية فإن الله برأيه يوجه ملكاً "إلى قلبك. إن كان حلال قال لك: كلوا من طيبات ما رزقناكم-. وإن كان حراماً وشبهة قال لك: "ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه"[2]، ولا ضرورة لمعرفة أوامر الشرع ونواهيه وحتى المحرم من الطعام لا يأكله الصوفي إلا إن ذكر اسم الله عليه، فإذا أمرك فروج قلبك بشرب الخمر مثلاً فما عليك إلا الطاعة، فهذا ليس من الشيطان لأنه تعالى "ألهمها فجورها وتقواها"، فالإلهام مرافق لكل الأفعال مهما تكن وأما قضية الشيطان والنفس وإلى ما هنالك، فتلك كائنة عند غير الكمل، أما الأولياء فلا سلطان عليهم إلا الله. ولكن كيف يأمر الله أوليائه بشرب الخمر المحرم في شرعه؟ يقول الدباغ: إليك مثلاً بإخوة يوسف عليه

[1] - ص٣٢٣ ــ ٣٢٤ الفتح الرباني
[2] - ص٣٥٠ نفسه

السلام، أليسوا من الأنبياء المعصومين، فهل لك أن تخطئهم؟ لا لم يخطئوا "والذي صدر من إخوة يوسف مأمورين به في بواطنهم، والأمر من عند الله، ومعاتبتهم على ذلك على حسب الظاهر فقط، لأن الغيب سر مع الله وذلك كأن يأمرهم الله تعالى في الباطن بأمر وقد أمرهم في الظاهر بخلافه"[1] وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا! فإن الله إذن يعاتب في الظاهر على أمر في الباطن! إلا أن المخلوق يخجل من هكذا خُلق، فسبحانه تعالى إذن قد أمر إخوة يوسف أن يقتلوا أخاهم!! فسبحان ربك رب العزة عما يصفون.

الصوفي يأخذ أحكامه وفتاويه من الله مباشرة "وكان رضي الله عنه في سماعه ووجده أتته رقعة من أحدهم – فيها مسألة فقهية، فقال: حتى استأذن في الكلام وأخاطر "أي يسأل قلبه" ثم قال: ..."[2] فاتصل بالله ثم أعطاه حكم المسألة وهيهات لأحدهم أن يعارضه إلا إن أراد الكفر وتكذيب الله عز وجل!

الصوفي لا يأخذ عن الله فحسب، بل ويأخذ أيضاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة، حتى أن الشيخ عبد القادر الجيلاني لا يرى تعريفاً للصوفي غير ذلك، فالصوفي برأيه من "يكون قلبه سفيراً بينه وبين ربه

---

[1] - ص٤١٨ ج١ الإبريز
[2] - ص٣٣٨ الفتح الرباني

عز وجل، لا يكون صوفياً حتى يرى نبيه ﷺ في المنام يُؤذنه، يأمره وينهاه"[1]. فأين هذا من الإصحاحات وإلى ما هنالك، فهكذا العلم وإلا فلا!!

إن للصوفي الفهم الأعمق بمراد رسول الله ﷺ، لأن جبريل أو نائبه ملك الإلهام هو أستاذ الصوفي ومرشده، "فملك الإلهام يفهِّم ذلك الولي شريعة محمد ﷺ، ويطلعه على أسرارها كأنه أخذها عن رسول الله ﷺ بلا واسطة، فإذا صح للولي الأخذ عن رسول الله ﷺ من غير واسطة فهنالك يصح أن يرشد الأمة المحمدية"[2]. فليس الإرشاد إذن للمحدِّثين والفقهاء العاملون بما سوى الله، إنه للواصلين إلى الله ورسوله، فالصوفي لا يأخذ الأحاديث النبوية من الإصحاحات وإنما عن الرسول نفسه في المنام أو من الذي أتاه بالرسالة أي من جبريل عليه السلام.

أما ابن عربي فقد انشغل أيضاً بالألقاب تمييزاً للأولياء عمن سواهم، فالفقيه الذي أخذ بالنقل والاجتهاد هو خليفة رسول الله ﷺ، أما الصوفي الذي يأخذ أحكامه من الله مباشرة كأخذ الرسول لها إن صح التعبير، فهو خليفة الله، يقول "فنقول فيه بلسان الكشف خليفة الله وبلسان الظاهر خليفة رسول الله"[3]. ولكن كما يقول "قد يظهر من الخليفة ما يخالف حديثاً ـ لم يثبت عنده من جهة الكشف ذلك الخبر عن النبي صلى

[1] - ص٣٠٨ الفتح الرباني
[2] - ص٧١ ــ ٧٢ ج٢ م٤٢ اليواقيت والجواهر
[3] - ص١٦٣ ج١ فصوص الحكم

الله عليه وسلم، ولو ثبت لحكم به وإن كان الطريق فيه العدل عن العدل"[1].

فأحاديثه لدنية وما ثبت لديه عن طريق الكشف أخذ به، ولو كان فيه عدول أي انحراف عن الشريعة، وما لم يثبت من الأحاديث عن طريق الكشف تركه ومهما تكن النتيجة، فما أشد حرص القوم على سنة الرسول الصحيحة فأين هم من أصحاب الرسوم الذين أفنوا أعمارهم في جمع الأحاديث؟!

---

[1] - ص١٦٤ نفسه

ـ الخاتمة:

الأوامر والنواهي الإلهية بما فيها التكاليف، كل ذلك لمصلحة الفرد والمجتمع، أما الصوفي الذي لا علاقة له بالمجتمع والساعي لخراب الفرد وبما له من توحيد مختلف، شن حربه الشعواء على التكاليف، بكل ما توفر له من أسلحة وهي ما يلي:

* التكاليف للمريدين بشكل مؤقت، إلى حين الوصول للكشف أو اليقين، إنها خل وبقل والطعام غيرها.

* المحبة: من كان محبوباً لله، فلا تكاليف عليه بحكم الدلال.

* الباطن والظاهر: التكاليف للباطن للقلب لا للجوارح.

* الزهد: بالزهد بما سوى الله على الإطلاق كان الزهد الصوفي شاملاً للتكاليف والجنة والنار والنبوة والقرآن.

* المعرفة: من عرف الله فلا تكاليف عليه، أي: من عرف توحيد "لا فاعل ولا موجود إلا الله" فلا تكاليف عليه لاستحالة وجودها مع الجبر أو مع انعدام الفرق بين الخالق والمخلوق.

* المقامات: من كان له الوصول إلى الفناء في الله أو الاتحاد به أو حلول الله فيه، فلا تكاليف عليه.

* الرياضات: التكاليف رياضات ولا تصلح للتعبد، ومن وجد ما هو أفضل منها لرياضاته، فله ألا يقيمها. والجوع مثلاً هو الأجدى من الصيام المحدود بالزمن.

* الكرامة: لا كرامات ولا خوارق مع التكاليف، وإن حدثت لمن أقامها فهي حسية في أدنى درجات الكرامة، إن لم تكن استدراجاً، بينما خوارق الصوفي شاهد صدق على تركه للتكاليف.

* الذكر: الذكر الذي في الصلاة هو أعظم ما فيها، ومن كان مع الذكر سقطت عنه الصلاة بالجوارح، وبالذكر لا تكاليف.

* التقية والأسرار: بالتقية والأسرار يكون موارة الصوفي لإنكاره التكاليف.

* القربى إلى الله: التكاليف حجاب ومشغلة بغير الله، ولا هي صالحة للقربى إليه سبحانه وتعالى.

* أسباب التكاليف: التكاليف عقوبة الذين زعموا أن لهم إرادة مع إرادة الله، إنه المكر الإلهي لطرد العوام والجهلة عن طرق الوصول إليه سبحانه، فشغلهم بما سواه من جنة ونار وتكاليف. أو هي أدوية لعلاج أمراض ولا تصلح إلا للمرضى لا غير.

* الوصول: لا تحجير ولا تكاليف لمن وصل إلى الله، ومن حق الواصل خلع نعليه، ولا شيء بعدها إلا الراحة، أو الراحة من الكتاب والسنة.

* الأوامر الإلهية: من كان له الوصول إلى مقام "حدثني قلبي عن ربي" فلا فعل له إلا بأمر الله، فإن أمره بالصلاة صلى وإن نهاه عنها انتهى، ولا حكم على أفعاله إلا من الله ولا أحد سواه.

- المراجع:

١ – **القرآن الكريم.**

٢ – **الصلة بين التصوف والتشيع:** د. كامل الشيبي، ط٢.

٣ – **التصوف الثورة الروحية في الإسلام:** د. أبو العلا عفيفي، دار الشعب، بيروت.

٤ – **التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة:** د. ابراهيم هلال، ١٩٧٥.

٥ – **النور من كلمات أبي طيفور:** أبو يزيد البسطامي.

٦ – **الفتح الرباني:** عبد القادر الجيلاني، تحقيق: محمد البواب، دار الألباب.

٧ – **الغنية:** عبد القادر الجيلاني، دار الألباب.

٨ – **الكبريت الأحمر:** عبد الوهاب الشعراني، هامش اليواقيت والجواهر.

٩ – **الفتوحات المكية:** محيي الدين ابن عربي، مكتبة الثقافة.

١٠ – **الفتوحات الإلهية:** هامش إيقاظ الهمم.

١١ – **الإنسان عند الغزالي:** د. علي عثمان، تعريب خيري حماد.

١٢ ـ **التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس:** عبد القادر عطا، ط١.

١٣ ـ **الصوفية في شعر ابن الفارض:** تحقيق حامد عبود، ١٩٨٨، ط١.

١٤ ـ **الإبريز:** أحمد المبارك، تحقيق محمد الشماع، ج١ ط١ ١٩٨٤، ج٢ ط١ ١٩٨٦.

١٥ ـ **الفصل في الملل والأهواء والنحل:** علي بن حزم ١٩٨٣.

١٦ ـ **المظنون به على غير أهله:** أبو حامد الغزالي، هامش الإنسان الكامل ١٩٨٦.

١٧ ـ **التصوف في الإسلام:** د. عمر فروخ، دار الكتاب اللبناني ١٩٨١.

١٨ ـ **الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي:** يوسف زيدان ١٩٨٨.

١٩ ـ **الطبقات الكبرى:** عبد الوهاب الشعراني، دار الفكر.

٢٠ ـ **الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم:** د. علي زيعور ط١.

٢١ ـ **الرسالة القشيرية:** عبد الكريم القشيري ١٩٥٧.

٢٢ ـ **التعرف لمذهب أهل التصوف:** أبو بكر محمد الكلاباذي، المكتبة العلمية ١٩٨٠.

٢٣ ـ **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل:** عبد الكريم الجيلاني، مطبعة حجازي، القاهرة ١٣٦٨ هـ.

٢٤ ـ **العقلية الصوفية ونفسانية التصوف:** د. علي زيعور ط١.

٢٥ ـ **الروحية عند محيي الدين ابن عربي:** د. علي راضي.

٢٦ ـ **التصوف بين الحق والخلق:** محمد فهر شقفة ط٢.

٢٧ ـ **الأنوار القدسية:** عبد الوهاب الشعراني، المكتبة الشعبية، هامش الطبقات الكبرى.

٢٨ ـ **إحياء علوم الدين:** أبو حامد الغزالي.

٢٩ ـ **إيقاظ الهمم:** أحمد بن عجيبة، ط١ ١٩٨٦.

٣٠ - **ابن سبعين وفلسفته الصوفية:** د. أبو الوفا التفتازاني، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٣ ط١.

٣١ ـ **ابن عربي حياته ومذهبه:** أثين بلاثيوس، ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي ١٩٧٩.

٣٢ ـ **أضواء على مسلك التوحيد:** د. سامي المكارم ١٩٦١.

٣٤ ـ **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام:** د. علي سامي النشار، دار المعارف ط٦.

٣٥ ـ **مدارج السالكين:** ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، ١٩٧٢ ط٢.

٣٦ ـ **مواقع النجوم:** محيي الدين ابن عربي، مطبعة محمد صبيح، ١٩٦٥.

٣٧ ـ **من التراث الصوفي:** د. محمد جعفر ١٩٧٤ ط١.

٣٨ ـ **فلسفة التأويل:** د. نصر حامد أبو زيد، ١٩٨٣ ط١.

٣٩ ـ **في التصوف الإسلامي وتاريخه:** رينولد نيكولسون، ترجمة: د. أبو العلا عفيفي.

٤٠ ـ **فصوص الحكم:** محيي الدين ابن عربي، تحقيق أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي.

٤١ ـ **في تراثنا العربي الإسلامي:** سلسلة عالم المعرفة، د. توفيق الطويل، رقم ٨٧.

٤٢ ـ **شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية:** د. عبد الرحمن بدوي، ط٤.

٤٣ ـ **شخصيات قلقة في الإسلام:** عبد الرحمن بدوي.

٤٤ – **شروح رسالة الشيخ أرسلان:** تحقيق عزة حصرية، ١٩٦٩.

٤٥ – **شطحات الصوفية:** د. عبد الرحمن بدوي، ١٩٧٦ ط٢.

٤٦ – **سر العالمين:** أبو حامد الغزالي، دار الشباب.

٤٧ – **سير الأولياء:** صفي الدين الحسني، تحقيق مأمون ياسين وعفت حمزة.

٤٨ – **تلبيس إبليس:** عبد الرحمن بن الجوزي ط٢.

٤٩ – **عوارف المعارف:** السهروردي، هامش إحياء علوم الدين.

٥٠ – **طبقات الصوفية:** عبد الرحمن السلمي، تحقيق نور الدين شريبه ١٩٨٦ ط٣.

٥١ – **لطائف المنن:** تاج الدين السكندري، مكتبة القاهرة ١٩٧٩.

٥٢ – **روح القدس في محاسبة النفس:** محيي الدين ابن عربي، مكتبة الوكيل.

٥٣ – **حقائق عن التصوف:** عبد القادر عيسى ١٩٧٠ ط٢.

٥٤ – **دراسات في التصوف الإسلامي:** د. محمد جلال شرف، دار النهضة العربية، ١٩٨٤.

- الفهرس: